
أدبيات
54
Twitter: @abdulllah1994
30.4.2018
الشاي... والقهوة
الدار السعودية
للنشر والتوزيع

أدبيات الشاي والقهوة والدخان

تأليف
محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي
الخطاط غفر الله له

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله الذي بيده مقاليد السموات والارض ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد شفيع الامة يوم الحساب والعرض وعلى آله واصحابه الطاهرين الابرار (اما بعد) فلما كان الشاي والقهوة والدخان مما شاع شربها واستعمالها في هذا الزمان ، في جميع الممالك والبلدان ولدى كافة الناس حتى الكبار والصغار من المسلمين والافرنج .

احببت ان اجمع رسالة لطيفة مما قاله الادباء والظرفاء فيها على سبيل الفكاهة ، ولم اتعرض لذكر منافعها او مضارها لان ذلك لا يخفى على اولي الحكمة والنباهة وكم ذكر فطاحل الشعراء قديماً وحديثاً في الخمريات من القصائد والأبيات .

جمعتها لمفاكهة الاخوان الافاضل ، ومنادمة الاصدقاء الاماثل ، جلبا للبسط والانشراح وترويحاً للنفس بلطيف المزاح « فقد قيل » ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، وتملُّ كما تَمَلُّ الابدان .

قال بعض الظرفاء :

فنادمْ رقيق الطبع وامرحْ ولا تزِدْ
فللنفس في بعضِ المجون شفــــاءُ

وقال بعضهم ايضاً :

همُّنا العلم لا مِراضُ الجفونِ لا تَـظنـّوا مرجّمات الظّنونِ
انّ هَزْلاً اقولهُ في المُجونِ لَمعينٌ على صعابِ الفنــــونِ

واني لم أجد رسالة في هذا الشأن غير ثلاث رسائل مطبوعات، «الاولى» للشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي « والثانية » تسمى سماع الناي في شرب الشاي « والثالثة » تحفة الاحباب في ذكر ما طاب من الشراب. وهذه بذيل رسالة تحفة الملوك المكية وهما من نظم الشيخ احمد بن امين الشهير ببيت المال المكي رحمـه الله تعالى وقــــد نظمها سنة ألف ومائتين وتسع وثمانين هجرية ثم طبعها سنة ١٢٩٠ ﻫ بالمطبعة الكاستليه بمصر .

وكل هذه الرسائل تبحث اما عن منافع هــــذه المشروبات الثلاثة او عن منابتها وانواعها، او عن كيفية طبخها واستعمالها — واظرف هذه الرسائل رسالة الشيخ احمد بيت المال المكي — اما رسالتي هذه فهي وإن كانت من جنس تلك الرسائل ، غير انهـا تخالفها في طريقتها ، وتباينها في منهجها ، فهي رسالة ادبيــة ،

ونوادر فكاهية ، يستظرفها كل اديب ، ويستلطفها كل لبيب ، وهي على صغرها تعد هي الاولى من نوعها .

وليعذرني القارىء الكريم ان وجد فيها شعراً غير جيد لا يرضي ارباب الانشاء والادب ؛ او ابياتاً ركيكة لا تبلغ درجة الفصاحة في لغة العرب ، فاني لم اتعمد انتخاب الجيد والحسن ، ولم ألتزم تمييز الفاضل من المفضول ، لأن الرسالة فكاهية محضة لا تحتمل ذلك . فرُبَّ مَثَل عامّي اوقع في النفس من الفصيح — على أني أتمثل بقول القائل :

ما راجَ مِن قولي فخذه وما تجدْ
مِن زائفٍ فاتركه لي ملفوفا
لا بد أن تجدَ الصيارفُ مَرةً
بين الدراهم درهماً مزيوفا
إنَّ المصنفَ لا يكونُ مصنفاً
إلا إذا جَعَلَ الكلامَ صنوفا

هذا وقد جعلت رسالتي محصورة في مقدمة وثلاثة أقسام .

نسأل الله تعالى الرضا والتوفيق ، والعفو والعافية ، والمغفرة والاحسان ، انه بعباده لطيف خبير .

المؤلف

محمد طاهر الكردي المكي الخطاط

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الطبعة الثانية

الحمد لله الحليم العظيم ذي الجلال والاكرام ، والصلاة والسلام على سيدنا (محمد) النبي الامي سيد الانام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين (وبعد) فلما كان كتابي « ادبيات الشاي والقهوة والدخان » مقبولاً ومرغوباً لدى كافة الطبقات ، من العلماء الاعلام ، والادباء الكرام ، والشعراء النّبهاء ، والمثقفين الفضلاء — لما فيه من الفكاهات الطريفة ، واللطائف الظريفة ، مما يطرد عن النفس السآمة والملل ويبثّ في القلب البسط والنشاط والامل ، وقد قاربت الطبعة الاولى منه على النفاد . (بادرت) باعادة طبعه للمرة الثانية وادخلت عليه كثيراً من الزيادات من المُلَح والفوائد كما وضعت صوراً لادوات هذه المشروبات الثلاثة ، حتى صبح ولله الحمد هو الكتاب الوحيد من نوعه ، وكان اول اشتغالي به في عام ١٣٤٥ للهجرة حينما كنت طالباً في الازهر الشريف بمصر ولا زلت اجمع ما قيل في الشاي والقهوة والدخان ، من المجلات والجرائد وافواه الرجال حتى الآن ، ولا اتعمد اختيار الجيد من

القصائد والاشعار ، بل اضع ما رأيت ولو باللغة العامية ، اذ القصد ترويح النفس وجلب البسط والسرور

هـــذا اختياري فوافقْ ان رضيتَ به
اوْ لا فدعني ومـــا أهوَى وأختارُ

ولا يخفى على كل ذي عقل سليم ، وكل فاضل واديب كريم ان المزاح اللطيف والدعابة البريئة والنكتة الحلوة ، مما تخفف عن النفس السآمة والملل ، وتدفع الذهن الشارد والفكر الراكد الى النشاط والعمل ، ويكفينا في هذا المقام الاستدلال بقصـــة الصحابي الجليل نعيمان بن عمرو الانصاري رضي الله تعالى عنه التي نذكرها استطراداً بعد هذه الخطبة .

واني الآن وقد بلغت الستين من العمر كثيراً ما اتمثل بقول الشاعر :

صرفتُ زمانا في فنونٍ جمعتهـــا
وافرغتُ جهدي والجنونُ فنونُ

فلما تجلّى الامر وانكشف الغِطا
تبـــين لي انَّ الفنـــونَ جنونُ

نسأل الله الحليم العظيم ، الغفور الرحيم ، ان يغفر لنا ذنوبنا ، ويستر عيوبنا ، وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وان يختم اعمالنا بالصالحات وحياتنا بالايمان الكامل ، وان يميتنا على طهـــارة

ونظافة وان يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة ، ويجعلنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وادخلنا الجنة مع الابرار ، يا عزيز يا غفار ، وصلّى الله على نبينا وشفيعنا وسيدنا محمد النبي العربي المختار ، وعلى آله واصحابه الكرام البررة الاطهار، وسَلّم تسليماً كثيراً آمين.

المؤلف

محمد طاهر الكردي

الخطاط بوزارة المعارف بمكة المشرفة



ترجمة الصحابي
نعيمان الأنصاري

هو نعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاري، شهد بدراً وكان من قدماء الصحابة وكبرائهم وكانت فيه دعابة زائدة وله اخبار ظريفة في دعابته — منها — خبره مع سويبط بن حرملة : قالت ام سلمة رضي الله عنها ان ابا بكر خرج تاجراً الى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة وكلاهما بدري وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيمان فقال: أطعمني فقال لا حتى يجيء أبو بكر وكان نعيمان رجلاً مضحاكاً مزّاحاً فقال لأغيظنك فذهب الى أناس جلبوا ظَهراً فقال ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً وهو ذو لسانٍ ولعله يقول أنا حرّ فان كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي فقالوا بلى نبتاعه منك بعشر قلائص فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال دونكم هو هذا فجاء القوم فقالوا قد اشتريناك فقال سويبط هو كاذب أنا رجل حُرّ قالوا قد أخبرنا خبرك فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به وجاء أبو بكر فأخبر فذهب هو وأصحاب له فردوا القلائص واخذوه فضحك النبي صلى الله عليهِ وسلم من ذلك حولاً .

وعن ربيعة بن عثمان قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه فقال بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لنعيمان بن عمرو الانصاري وكان يقال له النعيمان لو نحرتها فأكلناها فانا قد قرمنا الى اللحم ويغرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنها قال فنحرها النعيمان ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح واعقراه يا محمد فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال من فعل هذا قالوا النعيمان فاتبعه يسأل عنه فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد والسعف فأشار اليه رجل ورفع صوته يقول ما رأيته يا رسول الله واشار بأصبعه الى حيث هو فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تغير وجهه بالسعف الذي سقط عليه فقال له ما حملك على ما صنعت قال الذين دلّوك علي يا رسول الله هم الذين امروني قال فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عن وجهه ويضحك قال ثم غرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عبد الله بن مصعب قال كان مخرمة بن نوفل بن وهيب الزهري شيخاً كبيراً بالمدينة أعمى وكان قد بلغ مائة وخمس عشرة سنة فقام يوماً في المسجد يريد ان يبول فصاح به الناس فأتاه نعيمان بن عمرو بن رفاعة فنحى به ناحيه من المسجد ثم قال اجلس ههنا فأجلسه يبول وتركه فبال وصاح به الناس فلما فرغ قال من جاء بي ويحكم في هذا الموضع قالوا له النعيمان بن عمرو قال

فعل الله به وفعل اما ان لله علي ان ظفرت به ان اضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت فمكث ما شاء الله حتى نسي ذلك مخرمة ثم اتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد وكان عثمان اذا صلى لم يلتفت فقال له هل لك في نعيمان قال نعم اين هو دلني عليه فأتى به حتى اوقفه على عثمان فقال دونك هذا هو فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجه فقيل له انما ضربت امير المؤمنين عثمان فسمعت بذلك بنو زهرة فاجتمعوا في ذلك فقال عثمان رضي الله عنه دعوا نعيمان فقد شهد بدراً .

انتهى باختصار من الاستيعاب الذي بهامش كتاب الاصابة في تمييز الصحابة وقد ذكرت ترجمة النعيمان ايضاً في الاصابة .

مُقَدّمَة

لا بد للقارىء الكريم ان يعرف شيئاً عن اصل نبات الشاي والقهوة والدخان ، وهي المشروبات التي تدور حولها هـــذه الرسالة – لذلك رأيت ان اصنع نبذة صغيرة عن كل نوع من هذه الانواع الثلاثة من غير تعرض لمضارها او منافعهـا ، فكل ذلك معروف عند ذوي الخبرة ولا يخفى ان كل شيء اذا استعمـــل بكثرة وافراط ضرّ حتى الأكل من الطيبات ، وكل شيء حـلال استعمل باعتدال ونظام حصل منه النفع ، وكل شيء قد يمدح وقد يذم حتى العسل . كما قال الشاعر فيه :

تقول هذا مُجاجُ النحل تمدحهُ
وإنْ تَـذمَّ فقُلْ قَـيْءُ الزَّنابيرِ

ولقد كتب الباحثون والاطباء حول هذه المشروبات الثلاثة مقالات كثيرة في الجرائد والمجلات ، وانا اقتطف منها نبذة عن اصلها وذاتها فقط ، واترك الكلام عن بقية نواحيها الى من يهمه البحث والاستقصاء .

تاريخ المقاهي

لم نر شيئاً عن نشأة المقاهي وظهورها ، ولكن
من حسن الصدف اطّلعنا على نبذة لا بأس بها
كتبتهـــا مجلة « الاثنين » بعنوان « حرب على
المقاهي » وهذا نصّها :

للمقاهي العامة تواريخ طريفة في حياة الامم والشعوب.. ففي تركيا ، مثلاً ، عرفت المقاهي لأول مرة عــام ١٥٥٤ ، في عهد السلطان « سليمان القانوني » عندما اقدم رجلان ذكيان من ابنـــاء دمشق وحلب في انشاء مقهيين في « القسطنطينية » كانا اول ما عهدته السلطنة العثمانية من هذا النوع في تاريخها الطويل.. ولم يكد يتم افتتـــاح المقهيين اللذين روعيت فيهما الفخامة ، والأبهة ، حتى تكاثر عليها الرواد ، وذاع صيتهما في كل مكان مما اغرى بافتتاح غيرهما في انحاء العاصمة .

وبعد انقضـــاء خمسة عشر عاماً على انتشار المقاهي ، تعالت صيحات الائمة والدراويش بالاحتجاج والاستنكار ، يقولون انه في الوقت الذي تزدحم فيه المقاهي بالناس ، تخلو بيوت العبـــادة وتقفر . وقد اجمعت الدوائر الدينية التي قادت هــذه الحملة على اعتبار القهوة محرمة كالخمر !

ولم يتراجع الاتراك امام هـــذه الحملة ، بل مضوا في حياتهم يحتسون القهوة ، ويغشون المقاهي .. وبعد عشر سنوات اخرى تمكن العلماء والدراويش من حمل الحكومة على سن عقوبات مدنية على شاربي القهوة ومرتادي دورها . . ولكن الاتراك قابلوا هذا التشديد بالتحايل على القانون – كما يحدث عادة في كل زمان ومكان – فنشأت للقهوة «سوق سوداء» وذهب الناس يتعاطونها في الخفاء !.

ثم تولى الحكم بعـــد ذلك وزير نشيط كان يخشى ان تصبح المقاهي موطناً للفتن ، فجدد صدور الاوامر بمنعها وجعل عقوبة المخالفين الجـــلد اول مرة .. فان تكررت المخالفة كان جزاء العائدين وضعهم في اكياس جلدية تخـاط عليهم ، ثم اغراقهم في مياه البوسفور !.

* * *

اما في بلاد العجم ، فكانت المقاهي مباحة لا حرج عـــلى مرتاديهـــا ، وان اقتصر ارتيادها على افراد الطبقة المثقفة من المصلحين الدينيين ، ومفسري القوانين ، والشعـراء والمؤرخين الذين يتخذون منها موطناً لاذاعة آرائهم ووضع ثمرات قرائحهم في خدمة الناس .

وفي عام ١٦٧٠ امتدت عدوى المقاهي الى المانيـا ، وظلت الحال كذلك حتى عهد الملك فريدريك الاكبر ، الذي راعه تزايد مقادير القهوة التي يحتسيها رعاياه ، وتضخم الاموال التي يستولي

عليها التجار الاجانب تبعاً لذلك .. ولهـذا اصدر قراراً يحض المواطنين « الصالحين » على احتساء البيرة بدل القهوة.. ولم تكن هنـاك غرابة في صدور قرار كهذا ، لان الملك فردريك نفسه نشأ على حب البيرة شأنه في ذلك شأن اسلافه وضباط جيشه .. وكان يعتقد تماماً ان المعارك الحربية التي كسبتها المانيا قد تمت على أيدي جيوش يحتسي جنودها البيرة !.

ومن الطريف ان نظرة فريدريك قـد تطورت بعد ذلك الى النقيض ، فاحتكر هـــو استيراد البن والاشراف على طحنه ، حتى اصبح مورداً جزيل الربح من موارده الحكومية !. وافضى ذلك الى نشوء طبقـــة جديدة من الموظفين اطلق عليها اسم « الشمامين »، وكان افرادها يختارون من قدماء المحاربين ، ويعهد اليهم في تعقب أصحاب المطاحن غير المرخص بها ، وذلك بتشمم روائح البن الزكية المنبعثة من مكامنهم !

وكان « الشمامون » يمنحون عادة نصف الغرامات التي يحـكم بها على المخالفين .

***

اما في انجلترا ، فقد صدر في عهد الملك شارل الاول قانون يحظر افتتاح المقاهي العامة وغشيانها . . وقد قوبل هذا القانون بالسخط الشديد من كافة الطبقات ، حتى اضطرت الحكومة الى تعديل القانون والسماح بفترة مدتها عام ونصف يستمتع بهـــا

الجمهور بارتياد المقاهي وشرب القهوة .. ثم امتدت هـذه الفترة الى اجل غير مسمى ، وتخلى القانون عن تشدده في هذا المجال ، وكانت النتيجة ان تكاثرت المقاهي ، وازدهرت في لندن ، واصبحت مراكز للناس من ذوي الميول المتقاربة والمهن المتشابهة ، ثم تطور امرها مع الزمن ، وقام على انقاضها كثير من النوادي المعروفة .

* * *

اما في مصر ، فلا حرب على المقاهي ولا تحريم ، بل ان شوارع العاصمة ، والمدن الكبرى ، تتنافس في افتتاح المقاهي الجديدة ، وتتأنق في تزويدها بكل ما يغري بازجاء وقت الفراغ فيها ، ويحبب لروادها الراحة والخمول ، حتى اصبحت هـذه المقاهي نفسها حرباً على الاخلاق ، وتعطيلاً لعوامل النشاط والانتاج والنهوض ، فهل يقدر لنا ان نشهد مثل هذه الحرب التاريخية على المقاهي عندنا ، ولو بالحد من انشائها على هذا النحو المتبع الآن .. او بتحديد ساعات عملها ، رحمة بأبناء الامة ، وتوجيهاً للنشاط الاجتماعي الذي تهدف اليه البلاد في نهضتها الحاضرة ؟!

المقاهي والمجتمع

ذكرت مجلة مسامرات الجيب التي تصدر بالقاهرة بتاريخ ٧ ينــاير ١٩٥١ بعدد ٢٨٧ مقالة بالعنوان المذكور بقــلم السيدة الفاضلة زاهية مرزوق وهذا هو نصها :

لا يعرف الذين ينددون بالمقاهي وروادها انها تؤدي خدمات اجتماعية ، تتفاوت وتختلف بتفاوت واختلاف الدرجة التعليمية وحالة المسكن والدخل الشهري ، وغير ذلك .

وقــد اثبت البحث ان اكثر من ٩٠ ٪ من عائلات الطبقة الفقيرة في القاهرة والاسكندرية تقيم في غرفة واحدة تستعمل في النوم والاكل والطهو .. ويستحيل ان تستخدم في استقبــال الضيوف ، ومن هنا كان لا بد لهذه العائلات من مقاه يقابل فيها الرجال ضيوفهم واصدقاءهم .

كما ان هناك كثيراً من الطوائف البسيطة كطائفة المنجدين ، وعمال المطابع ، والطهاة يجلسون في مقــاه خاصة معروفة ، يمكث فيهــا المتعطل منهم صباحاً ، حتى يأتي من يطلبه او يستخدمه .

لهذا ارى ان وجود المقاهي ضروري ، وان بعضهــا يؤدي

بالفعل بعض الخدمات الاجتماعية، على ان ذلك لا يعني انني احبذ ارتيادها ، فما اقبح المقهى المزدحم برجـال لا هم لهم الا التطلع للرائحات والغاديات ، وما اقبح الشباب الذين يقتلون وقتهم في لعب الطاولة .. وهم يستطيعون ان يشغلوا كل دقيقة من يومهم في زيادة ارباحهم ، او يريحوا في اوقات فراغهم ابدانهم واعصابهم ،

ولقد قمت ببحث واسع النطاق على زوار المقاهي في القاهرة خرجت منه بأن نسبة الاميين الذين يرتادونها تبلـــغ ٢٩،٦ ٪ وذوي التعليم العــالي ٥،٥ ٪ والمتوسط ٢٢،١ ٪ ودون المتوسط ٤٢،٨ ٪ .

ومن المتزوجين ٦١،٥ ٪ ومن غــير المتزوجين ٢٧،٨ ٪ .

وممن دخلهم جنيـه الى عشرة ٢٩ ٪ وممن دخلهـــم ٢٠ فأكثر ٧ ٪ .

وبلغ عدد المترددين على المقاهي من ذوي المنازل الرحيبة ١٣٪ ومن ذوي المنازل ذات الحجرة او الحجرتين نحو ٣٠ ٪ .

من ذلك يتبين ان الطبقة المتوسطة اكثر الطبقات ارتياداً للمقاهي ، وهـــذه ظاهرة لا يجب ان تفوت المصلحين كما اثبت البحث الارتباط الكبير بين حالة المسكن وارتيـــاد المقهى ، والتعليل واضـح ، فان هذه الطبقة تتخذ من المقاهي صالونات لاستقبال الضيوف .

ولقــد دلت الاحصاءات على ان ٨٥،٥ ٪ من رواد المقاهي

ليس لديهم مذياع ، وان ٨٧و٥ ٪ منهم غير مشترك في الصحف اليومية ، ومعنى ذلك ان المقاهي سدت نقصاً هاماً في حياتهم ، ونظرة الى الجدول الآتي تبين السر في تفاوت الاقبال على المقاهي حسب اختلاف الظروف .

النسبة	الاسباب التي تدعو للجلوس على المقاهي
٤٢و٣ ٪	لمجرد التسلية وضياع الوقت بأدوات التسلية الخاصة وسماع الراديو وقراءة الصحف ومسامرة الاصدقاء .
٢٠و٢ ٪	لمجرد شرب الشاي او القهوة او المشروبات الاخرى الساخنة والباردة .
١٢و٣ ٪	لمجرد التدخين (شيشة وجوزة) .
١٢و٣ ٪	لمجرد اللقاء في مواعيد خاصة .
٧و٧ ٪	لمجرد انتظار عمل في المهنة ، (وتوجد لذلك مقاه خاصة بالطوائف ، كقهوة المنجدين والبنائين والفراشين والخدم والطهاة وغير ذلك) ..
٥و٢ ٪	لمجرد الهرب من المنزل بسبب مشاكل عائلية او ظروف طارئة كما ذكر بعضهم وجود حماته في ضيافته و كثرة اطفاله وخوفه من زوجته !.

هذه لمحة سريعة عن المقاهي ، اضعها تحت انظـار المصلحين والمهتمين بالخدمة الاجتماعية ، وعندي ان في وسعهم عـلى ضوء الارقام الدقيقة التي قدمتهـا لهم ان يجدوا حلولاً مناسبة لمشكلة المقاهي في هذا البلد .

قصيدة في صَاحِبِ مقهى

قال الاستاذ احمد الصافي النجفي في صاحب مقهى في كتابه « الأمواج » .

هَبَّ صُبْحاً مِنْ كَراهُ فَمَضى
راكِضاً مِنْ بَيْتِهِ لِلْعَمَلِ

حاكِياً في عَدْوِهِ سَيّارَةً
أُوقِدَتْ بِالطَّمَعِ المُشْتَعِلِ

دَخَلَ المَقْهى وأَلْقى نَظَراً
حاسِباً كَمْ حَلَّهُ مِنْ رَجُلِ

فَإِذا مَرَّ عَلى قَهْوَتِهِ
عابِرٌ طارَ لَهُ مِنْ جَذَلِ

آمِلاً أنْ يَدْخُلَ المَقْهى فَإِنْ
راحَ أَعْياهُ ضَياعُ الأَمَلِ

يَحْسَبُ الزّائِرَ فِلْساً داخِلاً
كيسَهُ يَرْجو بِهِ أنْ يَعْتَلي

إنْ رَآهُ داخِــلاً حَيّاهُ أوْ
سَبَّهُ في القَلْبِ إنْ لَمْ يَدْخُلِ

وَإِذا دارَ بِمَقْهــاهُ امْــرُؤٌ
وَمَضى فارَ لَهُ كالمِرْجَــلِ

قائِلاً : هَــلْ عِنْدَنا مُنْتَزَهٌ
لِجَنابِ السّائِحِ المُنْتَقِــلِ

يُخْرِجُ الصّانِعَ مِنْ مَقْهاهُ إنْ
عامَــلَ الضَّيْفَ بِبَعْضِ الخَجَلِ

وإذا مَرَّ بِضَيْفٍ مُــدَّةً
وَهْوَ في كُرْسِيِّهِ لَمْ يَزَلِ

قالَ يَدْعُــوهُ بِقَلْبٍ ناقِمٍ
إنْ يَكُنْ في فَمِــهِ لَمْ يَقُلِ

جِئْتَنا صُبْحاً وَقَدْ صارَ المَسا
رَحَلَ الزُّوّارُ لِمْ لَمْ تَرْحَــلِ

نَحْنُ نَهْوى الضَّيْفَ إنْ عَجَّلَ في
فَلْسِهِ ثُمَّ مَضى في عَجَــلِ

عَقْلُهُ في فَلْسِهِ مُشْتَغِــلٌ
وَهْوَ في جَلْبِ الوَرى ذو شُغُلِ

طَلَبَ الزّائِرُ ماءً فامْتَلا
مِنْهُ غَيْظاً كادَ فيهِ يَصْطَلي

قائِلاً بَلْ فاطْلُبِ الشّايَ الّذي
لَكَ يَأتي بِالرُّوا وَالرِّبْحُ لي

إنْ أرَدْتَ الماءَ فاقْصُدْ بَرَدى[1]
فَهْوَ لِلظَّمْآنِ أصْفى مَنْهَلِ

جَلَسَ الضَّيْفُ فَما أمْهَلَهُ
بَلْ عَلَيْهِ انْقَضَّ مِثْلُ الاجْدَلِ[2]

وَإذا أمْهَلَ عِزْرائيلُ في
قَبْضِهِ الرّوحَ فَذا لَمْ يُمْهِلِ

قائِلاً عَجِّلْ وَقُلْ ما تَبْتَغي
عِنْدَنا مِنْ مَشْرَبٍ أوْ مَأكَلِ

فَيَقولُ الضَّيْفُ لا أبْغي سوى
راحَةٍ تُنْقِذُني مِنْ كَلَلي

فَيُناديهِ بِعُنْفٍ هٰذِهِ
قَهْوَةٌ لِلشُّرْبِ لا لِلْكَسَلِ

فَإذا قالَ لَهُ الشَّعْبُ غَداً
عَطِّلِ المَقْهى يُصَبْ بِالعَطَلِ

---

١ - نهر بدمشق . ٢ - الاجدل : الصقر .

أصل الشاي

اول ما عرف الشاي في بلاد الصين ، ثم انتقــل منها الى اليابان ، ثم انتقل الى الهند ، ثم الى البلاد الاوروبية ثم انتشر استعماله في جميع الممالك والاقطار ، ويقال ان الامة الانجليزية اكثر الامم الاوربية شرباً للشاي وكان لا يشربه الا الخاصــة ، بل ان ملك انـكلترا الملك جورج الخامس كان يعمل الشاي لنفسه بيده . وقـد بلغ في انجلترا ثمن الرطل منه نحو عشرة جنيهات وذلك في منتصف القرن السابع عشر للميلاد .

ولقد ذكرت مجلة الهــلال التي تصدر بمصر القاهرة بتاريخ نوفمبر عام ١٩٥٢ في صحيفة ٧٨ ما نصّه :

« لقي استعمال الشاي لأول مرة في انجلترا مقاومة شديدة وكان «جون ويسلي» يؤكد انه شراب مفسد للأخلاق ، وحاول لورد « فوربس » ان يستصدر مرسوماً بقصر استعماله على الطبقة الارستقراطية لأنه مفسد للطبقات الأخرى ، ولا سيما طبقــة العمال » .

هذا ما ذكرته مجلة الهــلال فسبحان مغير الاحوال ، فلقد اصبحت بريطانيا الآن تستهلك من الشاي خمس مرات ونصف

ما تستهلكه من اللبن والبيرة ، كما ذكرته جريدة المصري بتاريخ ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ - وقالت جريدة الاساس التي تصدر بمصر ان متوسط استهلاك الفرد في بريطانيا من الشاي سنوياً هو (١٩٠٠) فنجان - ثم ذكرت الجريدة نبذة وافية عن تاريخ ظهور الشاي بعددها الصادر في ٦ شوال عام ١٣٦٧ هجرية لم ننقلها هنا لطولها .

واعلم ان الشاي شجيرات لا يزيد ارتفاعها على متر ونصف المتر ، تظل خضراء طول العام تحمل وريقات صغيرة طولها ما بين خمس سنتيمترات الى العشر ، ولا تقطف اوراقها منها الا بعد عامين من غرسها ، فاذا قطفت تنثر على حصر لتجف وتذبل ، ثم تدرج وتبرم باليد على سطح من الخشب ثم تعرض الأوراق لدرجة مخصوصة من الحرارة ليتغير لونها ، ولهم في قطف اوراق الشاي عناية كبرى ، فالذين يقطفونها يعتنون بتنظيف ايديهم ولباسهم عناية شديدة ويلبسون القفاز ويتجنبون الأطعمة ذات الرائحة القوية لأن الشاي سريع الالتقاط للروائح .

والشاي انواع يختلف بعضها عن بعض باختلاف نوع التربة المغروسة فيها والكيفية التي يجمعونها بها ، فعلى اجادتها تتوقف جودة الشاي .

فالشاي الاسود يمتاز عن الأنواع الأخرى بأن اوراقه اختمرت قليلاً قبل تجفيفها ، والشاي الأخضر النقي يصنع من تلك الأوراق من غير اختمار فيحمص قبل تخميره في اوعية

خاصة ، اما الشاي الأخضر التجاري فهو على الغالب شاي اسود ملون باللون المعروف بالأزرق البروسياني .

والشاي منبه مفيد منعش وقد يضر إذا أخذ بكمية كبيرة خصوصاً اذا كان ثقيلاً وكان شربه على الجوع . واذا أجيد طبخه وعمله كان نفعه وشربه اكثر ، ولذلك يعرض مكتب الشاي الدولي كثيراً من الاشرطة السينمائية الناطقة باللغة العربية تصور كيفية صنع الشاي بالطريقة الصحيحة ، كما ذكرته جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ١٣٥٤ . هذا واشهر الأمم عناية بشرب الشاي ونظافة آلاته وادواته هم اهل ايران والأتراك واهل الحجاز واهل العراق واهل المغرب ويسمى الشاي عندهم بالأتاي وغالب شربهم الشاي الأخضر مع النعناع ، ويسمى الشاي عند أهل الحجاز بالشاهي وهم مولعون به يكثرون من شربه على الدوام .

أصل القهوة

القهوة من اسماء الخمر لكن المراد بها هنا قهوة البُنّ المعروفة في زماننا ، والبنّ بذور أشجار دائمة الاخضرار قد تطول الى ستة أمتار فأكثر وتحمص هذه البذور فوق النار الى ان يحمر او يسود ثم تطحن وتدق وبعد غليان الماء يوضع شيء منها ثم يشرب ومنهم من يحليه بالسكر ومنهم من يشربه مرّاً ، والغلاف الذي على البذور وهو قشرها يحمص ويدق ثم يطبخ بالماء ويضاف اليه من السكر ما يحليه وقد يخلطون به قليلاً من الزنجبيل والقرفة والهيل (حب الهال) ، وهذا القشر يستعمله اهل اليمن بكثرة ، ولأهل مصر والأتراك وأهل نجد كيفية مخصوصة في تحضير القهوة وطبخها وقهوة أهل نجد أشد مفعولاً لهضم الطعام .

وقد ظهرت قهوة البن في بلاد اليمن في القرن التاسع للهجرة تقريباً وصلت اليها من ارض الحبشة ، ثم في القرن العاشر ظهرت في مصر وكان اول ظهورها في الجامع الأزهر برواق اليمن

لأن اليانيين الموجودين فيه كانوا يستعملون شربها في اوقات مخصوصة .

ثم وصلت الى اوروبا في القرن السابع عشر للميلاد وأول مقهى انشئت في انجلترا عام ١٦٥٢ ميلادية ومن اوروبا انتشرت قهوة البن في جميع البلدان ، ويقال ان اول من شربها ، لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وكان الرطل منها يساوي ١٥٠ فرنكاً ، ويزرع البن في بلاد اليمن وفي الهند وفي الحبشة ويزرع في البرازيل بكثرة جداً وفي غيرها من البلدان .

القهوة في آسيا وافريقيا

جـــاء في مجلة نهضة افريقيـا بتاريخ يوليو سنة ١٩٥٩ التي تصـدر بالقاهرة بقلم الاستاذ محمد محمود زيتون عن القهوة ما نصه :

اكتشفت القهوة في بداية النصف الثاني من القرن السابـع الهجري في بلاد اليمن ، حـين ظهرت اشجارها في (وصاب) و (نهارى) فوق الجبال عند (زبيد) ، وبعد شيوعها في بلاد العرب انتقل استعمالها الى مصر ، حتى اذا كانت سنه ٩٦٢ فتح احد الدمشقيين مقهى بالقسطنطينية ، فاجتمع عنـــده الناس وخاصة العلمـــاء وشربوها ، ومن ثم انتقلت الى اوروبا وشاع استعمالها في جميـع انحاء المعمورة .

وشجرة البن الذي تستخرج منه القهوة تشبه شجرة الكريز وثمرتها ، غـــير ان ورق الاولى أسمك واشهى طعماً ، وتتميز شجرة البن بأن اوراقهـا خضراء قاتمة ، وأزهارها بيضاء تخرج

اثنتين اثنتين او ثلاثاً ثلاثاً، وفي وقت الخضرة يكون الثمر غضاً ومراً ، فإذا احمر كان طعمه أشبه بطعم اللبن الحامض ، فاذا تم نضجه احمر لونه ومال الى السواد ، غير انه غالباً ما يجمع قبل نضجه وينشر فوق الاسطح المستوية للمنازل حتى يجف ويسود لونه ، ثم تدور عليه الرحاء وبعد ذلك يذرى فيخلص البن من قشره ، وينقل هكذا الى بقاع المعمورة ، وأما البن الذي يترك قائماً على اصوله حتى يتم نضجه ، فانه لا يدهس بالرحى بل يقشر باليد ، ويترك حتى يجف كالزبيب وأهل اليمن يغلونه في الماء ثم يشربون منقوعه بارداً في الصيف ، فتفيد منه ابدانهم وهو اغلى ثمناً من النوع الذي يصدرونه الى الخارج بالقناطير المقنطرة .

ومن خواص شجرة البن انها تبلغ اقصى ارتفاعها وهو ثمان اذرع ، وتعمر ثلاثين سنة ، كما ان القهوة تنعش القلب ، وتزيل الكسل والخمول وتعين على السهر ، وتمنع من الصداع والزكام ، وتهضم الطعام اذا شربت منه بعد الاكل بساعة .

والقهوة نوعان : قشرية وبنية ، فالأولى من قشر البن فقط او منه مع حبه المقلو والاخرى من البن المدقق او المسحوق يغلى في الماء حتى تخرج خاصيته ، وللناس فيما يشربون مذاهب ، فمنهم من يشرب القهوة مضافاً اليها بعض السكر ، ومنهم من يشربها بدونه ، ومنهم من يشربها في فنجان كبير ، ومنهم من يشربها في فنجان صغير .

واهتم المؤلفون بأصل كلمة (قهوة) وثار الجدل واحتدم بين الفقهاء والأمراء والمحتسبين حول تحليلها وتحريمهـــا ، وصدرت الكتب ، ورسمت الفتاوى ، وضربت من اجلها رقاب وخربت بيوت ورمي شاربوهـــا بالكفر والزندقة ، ثم أبيحت لهم ، ثم حرمت عليهم واختلفوا في اصل اشتقاقها، فقال الفخر ابو بكر ابن ابي يزيد في كتابه (اثارة النخوة بحل القهوة) انها من الاقهاء وهو الكراهة او الاقعاد ، ومنه سميت الخمرة قهوة لانهـا تقعد شاربها من النوم وتكرهه في الطعام كما تكلم عنها (دى ساسي) في كتابه (الانيس المفيـــد للطالب المستفيد) وأسهب في فصول عنهـــا الشيخ عبد القادر بن محمد الانصاري الجزيرى في كتابه (جمـــع الشذور من منظوم ومنثور) ، وغـير هؤلاء كثير .

وكان اول ظهورها باليمن فاستعملت كالقات المعروف هناك باستعماله الى يومنا هذا ، وأول من استعملهـا الشيخ علي بن عمر الشاذلي اليمني ، وفطن اليها الصوفية فاستعانوا بها على السهر على يد جمال الدين الزنجاني اليمني المتوفي سنة ٨٧٥ هـ وقـــد اشتهر بالزهد والتقوى ، وانتقلت الى الحبشة والجبرت (زيلع) ومصر وغيرها من البلدان .

ويقول الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ، ان القهوة لم تظهر

في مصر قبل العشر الاول من القرن العاشر الهجري ، فكانت تشرب بالرواق اليمني بالأزهر ، فكان المجاورون به من اهل اليمن يشربونها هم ومن يساكنهم بهذا الرواق من أهل الحرمين ، ثم انتشرت في اوساط الفقراء من اهل الذكر ولا سيما في ليلتي الاثنين والجمعه ، فتوضع في صحاف من الفخار يغترف منها رئيس الحلقة ويسقيهم بنظام أثناء الذكر ، كما يسقي الحاضرين من العوام .

وعرفت القهوة في كل مكان دون انكار فكانت تحتسى في البيوت والاسواق جهاراً لاخفية ، بمكة وبالمسجد الحرام بالذات وبالمدينة .

وصارت تقدم في بيوت الاكابر والأعيان للضيوف ، وصار القوم يتلذذون بنكهتها ، ثم انشئت المقاهي التي كانوا يطلقون عليها اذ ذاك (بيوت القهوة) وقد اقترن فيها شرب القهوة بالغناء والطرب والرقص ولعب الشطرنج والميسر والقمار ، وكان الرجال والنساء يجتمعون فيها وكانت الموبقات ترتكب باسمها ، فلما صار ضحاياها من السكارى والبغايا من الكثرة بحيث لفت ذلك نظر الفقهاء ، دعو الى تحريمها ومصادرة أدواتها وتعزير شاربها ، واعتبار بيوتها كالخمارات والمواخير سواء بسواء .

وفي سنة ٩١٧ هـ كان بمكة أخوان أعجميان يعرفان الطب ،

انكرا القهوة وقالا بتحريمها فثار بهما أهل مكة فرحلا عنها الى مصر ، وعلم بأمرهما الشيخ شمس الدين محمد الحنفي الخطيب فما زال يغري بهما السلطان سليم الاول حتى قتلهما بالسيف ، وعاد فأوعز الى الامير خير بك المعمار باش مكة ومتولي الحسبة بها فأبطلها من الاسواق ومنع الناس من شربها وصادر ادواتها فصار الناس يتناولونها في بيوتهم ، لا يجرؤون على شربها جهرة ، وبينما هم كذلك اذ ورد من مصر مرسوم السلطان قانصوه الغوري بحلها ، فاتخذ خير بك ، واستعلن شاربوها وقال بعضهم شامتاً بالشيخ الخطيب :

قهــوة البن حرمت فاحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبــوا وعربدوا وانزلوا في قفا (الخطيب)

وقال آخر :

قهــوة البن حرمت فاحتسوا قهوة العنب
واشربوهــا وعربدوا والعنوا من هو السبب

وقصة خير بك طريفة ، فانه لما كان محتسباً بمكة من قبل الغوري مر ليلة ٢٣ من ربيع الاول سنة ٩١٧ ، فطاف بالكعبة الشريفة ، ثم شرب من ماء زمزم ، وعاد الى بيته ، فرأى في طريقه جماعة في ناحية من المسجد حول السيفي قرقماس الناصري ، فما ان رأوه حتى اطفأوا الفوانيس الموقدة ، فأثاروا

الشبهة حولهم ، فلما ارسل اليهم خير بك وجـــد بينهم شيئاً يتعاطونه على هيئة شراب مسكر ووجدهم يديرون كأساً بينهم يسقيهم بها قرقماس الذي زعم انه يقيم مولداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكر المحتسب ذلك عليهم وسأل عن هــذا الشراب ، فأخبروه انه شراب اتخذ في هــذا الزمان يأتي من اليمن يسمى القهوة ، ذاع وشاع في مكة ، وسرعان ما انعقـد مجلس الشرع من القضاة . فأفتوا جميعاً بأن هذه الهيئة التي يجتمع عليها الناس لشرب القهوة وارتكاب الموبقات مما حرم الله .

وأما حب البن فشأنه شأن النباتات ، والاصـــل في الشرع الاباحة ، ما لم ينص على الحكم أو يثبت الضرر ، وجيء بالاطباء فقرروا ان القهوة مفسدة للبدن ، وختم الشهود ، ووقع القضاة ونودي في مكة بمنع تعاطي القهوة .

هذا ولم يشذ عن القضــاة الموقعين القائلين بالتحريم الا مفتي مكة الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي فقـــد جهر برأيه واستمسك به ، فسمع ما يكره ، ولقي العنت والاذى ، وشنع على القضاة ، ورماهم بالنفاق واتقاء شر الامير بينما هم كانوا في طليعة شاربيها .

وسرعان ما جهز هؤلاء القضاة سؤالاً وجهوه الى علماء مصر يستفتونهم في امر القهوة وقصدهم طبعـاً احراج موقف خصمهم العنيد الذي يعارضهم ويشنع عليهم .

وصدر مرسوم الغوري بعد فتوى علماء مصر نقتبس منه مضمونه وقد جاء فيه : (وأما القهوة فقد بلغنا أن أناساً يشربونها على هيئة شرب الخمر ، ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون ومعلوم ان ماء زمزم اذا شرب على هذه الهيئة كان حراماً ، لهذا منع التظاهر بشربها والدوران بها في الاسواق) ، ومن ذلك يتبين ان الهيئة التي لازمت شرب القهوة أنكرها الذوق والشرع ، في حين ان القهوة ذاتها لم ينص المرسوم على منع تعاطيها ، بدليل ان السلطان لم يمنع ذلك في مصر .

وفي سنة ٩١٨ قدم مكة الامير قطلباي خلفاً لخير بك ، فشاع شربها واشتهرت اكثر مما كانت قبلاً ، وفي سنة ٩٣٢ قدمها محمد بن عراق ، فهاله ما يرتكب مع القهوة في بيوتها من محرمات فأشار على الحكام بابطالها مع التصريح بها في ذاتها ، حتى توفي سنة ٩٣٣ ، فعاد الأمر كما كان ، وظلت القهوة أفضل تحية تقدم للاكابر والاماثل ، وأفتى بحرقها الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي ، فثارت عليه العامة ، وندد به الشعراء حتى قال بعضهم :

ان اقواماً تعدوا والبلا منهم تأتى

حرموا القهوة عمداً قد رووا افكا وبهتا

ان سألت النص قالوا : (ابن عبد الحق) افتى

يا أولي الفضل اشربوها　　واتركوا ما كان بهتا
ودعوا العذال فيهـــا　　يشربون المـــاء حتى

وكانت بيوت القهوة عامرة بروادها ولا سيما في رمضان ، وفي ذات يوم من سنة ٩٤٥ انقض رجال الشرطة على من كان بها واستاقوهم في الحديد والحبال وباتوا في اشنع حـــال اذ ضرب كل واحـــد منهم سبع عشرة جلدة ثم اطلق سراحهم وعاد الى احتسائها في القاهرة طلبة العلم واساتذتهم والصالحون واهـــل الفتوى انفسهم ، واصحاب الدروس بعد ان لمسوا فيهـا تجديد النشاط وذهاب الكسل . ولله در مادحها اذ يقول :

يا قهـوة تذهب هم الفتى　　أنت لحادي العلم نعم المراد
شراب اهل الله فيها الشفا　　لطالب الحكمة بين العبـاد
نطبخها قشراً فتأتي لنا　　في نكهة المسك ولون المداد
ما عرف الحق سوى عاقل　　يشرب في وسط الزبادي زباد
حرمها الله على جاهـــل　　يقول في حرمتهـــا بالعناد
فيها لنا تبر وفي حانهـــا　　صحبة ابناء الكرام الجيـاد
كاللبن الخالص في حـــله　　ما خرجت عنه سوى بالسواد

هذه لمحة خاطفة عن الدور الذي قامت به القهوة في التاريخ

بين آسية وافريقية ، وما كان في حلهـــا هنا وتحريمها هناك من طرائف سجلها الادب العربي في شعر رائع متحرر من كل قيـــد وحسبنا من وراء ذلـــك كله ما كان ولا يزال للقهوة من اثر في تقاليدنا الاجتماعية المشتركة ، وعوائدنا العامـــة على الرغم من تقلباتها الرائعة منذ اكثر من خمسمائة سنة فيما بين اليمن والحجاز والحبشة ومصر والشام ، ثم انتشرت من ربوع آسية وافريقيـة الشقيقتين الى اوروبا .

أول كتاب وضع عن القهوة

يقال ان اول كتاب وضع عن القهوة منذ اربعمائة سنة هو كتاب « الطبيب الاوروبي » « برنارد دولف » ، فقد ألّفه في سنة ١٥٧٥ ميلادية ، كما ذكرته مجلة « الجيل الجديد » التي تصدر بمصر بعددها ١٢٧ في ٣١ مايو سنة ١٩٥٤ بعنوان (من هو اول رجل شرب القهوة في العالم) ، ويستحسن ان نأتي هنا بنفس المقالة لما فيها من الطرائف وهذا نصّها :

« إن أزمة البن جعلتنا نتحدث عن كيف القهوة ... فكَيْف عرف العالم البنّ وكيْف عرف الناس « كِيف » القهوة .

تقول اسطورة شرقية ، انه كان في الحبشة في العصور الاولى للمسيحية رئيس دير يشكو دائماً من أن رهبانه يغلب عليهم النعاس اذا ما قاموا للصلاة في منتصف الليل .. وجاءه يوماً جمال وقص عليه قصة غريبة ، وهي ان هناك في بطن الجبل اعشاباً اذا ما تناولتها الجمال تظل ساهرة طوال الليل، وقال ان

هذه الاعشاب عبارة عن شجيرات ذات اوراق طويلة تحمل حبات تميل الى الحمرة .. وسرعان ما أمره باحضار بعض اوراق هذه الشجيرات، ثم غلاها وطلب الى الرهبان ان يشربوا ماءها. ولشد ما كانت دهشته عندما لاحظ انهم ينشدون صلاة نصف الليل بحماسة ونشاط غير معهودين .

واسطورة اخرى

وتقول الاسطورة — ان صدقت — ان انتشار عادة شرب القهوة يرجع الى هذا الدير . وتقول اسطورة اخرى ان الرعاة العرب لاحظوا ان اغنامهم كانت تأكل من ثمرة معينة فيبدوا عليها نشاط غريب . وقد اقبل الرعاة ذات مرة على هذه الثمار يتذوقونها فلم يستسيغوا طعمها فألقوا بها الى نار موقدة ، فكانت لها رائحة ذكية عبقة فعمدوا بعد ذلك الى شرب ماء هذه الحبوب بعد غليها فيه وسموه —خمر الصالحين— اذ كانوا يستعينون بتأثيره على قيام الليل .

اول من تحدث عن القهوة

وكان الطبيب ـ برنارد دولف ـ اول اوروبي تحدث عن القهوة في اوروبا . فقد نشر عام ١٥٧٥ كتاباً ذكر فيه ان الأتراك يشربون سائلاً أسود كالحبر وهم يحبونه ويغرمون به ، وقال ان

هذا الشراب ينفع في علاج امراض كثيرة وأخصها داء المعدة .

وقد ادخل النمساويون القهوة الى اوروبا عام ١٦٨٣ بعد ان هزموا الأتراك في موقعة فينا . فقد حدث ان اراد امبراطور النمسا ان يكافىء أحد جنوده ويدعى (كولشتزكي) على بطولته فسمح له ان ينتخب بنفسه نوعاً من الغنائم ، فاختار الجندي كمية كبيرة من البن وتعلم من احد الاسرى الاتراك طريقة صنع القهوة .. ثم افتتح بعد ذلك مقهى في فينا . فكان اول مقهى في العالم .

تحريم القهوة

وقد حرم شرب القهوة في عام ٩١٧ هجرية في اواخر دولة الغوري وفي عهد السلطان سليم الاول ، وقد نظم بعض الشعراء يتهكم على تحريمها :

قهوة البن حرمت فاحتسوا قهوة العنب

واشربوها وعربدوا والعنوا من هو السبب

اول دولة تنتج البن

وشجيرات البن تنمو في البرازيل وجزائر الهند الغربية وفي جزيرة العرب وجزائر جاوه وسومطره وسيلان وبعض انحاء

افريقيا .. ويقاسي العالم الآن ازمة حادة بسبب نقص البن . اذ اصابته (دودة) فتلف معظمه في البرازيل . وهي الدولة التي تعتبر الأولى في انتاجه .

وتحتوي حبوب البن على نوعين من المواد المنبهة الخفيفة وهما الكافيين والشيوبرومين ويوجد الكافيين بنسبة ١ الى ١٫٥ ٪ ومن مزاياه انه منبه للأعصاب ويمتاز عن غيره من المواد المنبهة بأنه لا يحدث اي تأثير مهبط عقب شربه .. اما الشيوبرومين فيوجد بنفسه ضئيلة وهو مدر للبول .

أصل الدخان

الدخان في عصرنا يطلق على جميع انواع التبغ ، وهو نبت له ورق عريض ويسمى بالتُتُن[1] وبالطَّباق ، وكان يسمى في اوروبا التاباك والبيتون .

والدخان موطنه الاصلي امريكا ، فقد كان اهلها يستعملونه منذ اقدم العصور ولم يعرفه العالم إلا بعد اكتشاف امريكا ، وقد رأى كريستوف كولومب مكتشف امريكا الهنود الحمر يدخنونه حين نزل بجزيرة كوبا سنة ١٤٩٢ ميلادية ، ولاحظ ذلك ايضاً جاك كارتييه حين وصل الى كندا سنة ١٥٣٤ ملادية ، وأول من نقله الى اوروبا (فرنسسكو فرناديس) الذي ارسله فيليب الثاني ملك اسبانيا للبحث عن حاصلات المكسيك فحمل معه الى اسبانيا بذور الدخان وزرعه فى اوروبا لأول مرة سنة ١٥٥٨ م ، ثم ان (جان نيكوت) سفير فرنسا في البرتغال ارسل منه الى الملكة كاترين دي مدتيشي كدواء تستعمله لاذهاب الصداع الذي كان يلازمها .

---

١ – التتن بضم التائين ، والطباق بفتح الطاء حسب النطق العامي– واما الطباق بضم الطاء وتشديد الباء فهو شجر ينبت في جبال مكة كما ذكره صاحب القاموس .

فلقد كان الناس في ذلك الحين يعتبرون الدخان من جملة الادوية وكانوا يجففون اوراقه ثم يسحقونها ويستنشقون مسحوقها ثم صار ينتشر بعد ذلك في ربوع العالم ، ويقال ان ملك فرنسا لويس الثالث عشر امر سنة ١٦٣٥ ميلادية ان لا يشرب ولا يباع الا للصيدليات للتداوي به ، ودخل الدخان الى القسطنطينية سنة ١٦٠٥ في عهد السلطان احمد القانوني .

ويقال ان اول انجليزي دخنه هو البحار (رالف لين) ، وبعضهم يقول انه المكتشف المشهور (سير رالي) رآه احدهم ينبعث الدخان من فمه فحسب ان ناراً اندلعت في جوفه فسكب عليه وعاء مملوءاً بالماء .

وجاء في تاريخ افادة الانام بذكر اخبار بلد الله الحرام للشيخ عبد الله الغازي الهندي رحمه الله تعالى ما نصه — وفي سنة الف واثني عشر حدث شرب الدخان بمصر في زمن علي باشا الملقب بالنمر وكذلك ظهر التنباك والدخان بأرض الحجاز ومكة والشام في هذا التاريخ ، ولم يعرف قبل ذلك ، كذا في خلاصة الاثر ذكره في تحصيل المرام وفي خلاصة الكلام وكان اول ظهور شجرة الدخان سنة تسعمائة وتسع وتسعين ومما كان في دولة مولانا الشريف مسعود انه منع الناس من التظاهر بشرب الدخان فرفع من المقاهي والاسواق وصار حاكمه يقبض على من يرى عنده من الاطواق وكان ذلك في سنة تسع واربعين ومائة والف انتهى من تاريخ الغازي .

والدخان يزرع في كثير من البلدان كالعراق والعجم وتركيا راليمن – وهو انواع ويزرع منه في الحجاز النوع الاخضر ومن المجرب ان رماد السيجارة اذا وضع في جرح طهرها وبرىء سريعاً جداً .

أما الجراك[1] – فهو معجون مجمع من جملة اشياء منها الدخان والعسل وبعض الفواكه وجملة من النباتات العطرية وغير ذلك ، وهو ذو نكهة ورائحة مقبولة ، وهو ايضاً أنواع اجودها ما يستحضر بطريقة خاصة وهو من اختراع الهند وارداته ، والاحسن استعماله بعد المأكوت الدسمة . وهو يستعمل بكثرة في مدينة جدة وبلاد الهند .

ومؤلف هذه الرسالة لا يستعمل شيئاً من انواع الدخان والجراك قط ، وله في شرب الشاي والقهوة نظام دقيق وعادة خاصة .

---

١ – بضم الجيم وفتح الراء المخففة .

القسم الأول

ما جاء في الشاي

الى هنا انتهينا من مقدمة الكتاب وما جاء عن اصل الشاي والقهوة والدخان، ونعتقد اننا قد اسهبنا واعطينا هذا الأمر حقه الوافي بما لا يوجد في كتاب – فلنذكر الآن ما ورد في هذه المشروبات الثلاثة من الادبيات .

قال بعض علماء شنقيط في وصف الشاي وشربه نبذة لطيفة تعد من النوادر والملح على نمط متن خليل في فقه المالكية وهي :

الشايُ وَرَقٌ مُزِجَ ماؤهُ بسكَّرٍ لا كَقرنْفلٍ وحنّاءٍ، واستُحْسِنَ مفتولُه ، ووَجَبَ إنْ عَرَفَ وقَدِر، كإقامتهِ لذي فَضْلٍ اعتادَهُ ، وَزَمَنِ شتاءٍ ، وعندَ تَعَبٍ ، وَبعدَ كَلَحْمٍ ، وَهَلْ تُكْرهُ الخِنّاويةُ أو تُمنَعُ خلافٌ[1] .

---

١ – المراد بالحناوية الشاي الاحمر والمغاربة يشربونه بقلة اما الشاي الاخضر فيشربونه بكثرة . مع وضع النعناع فيه ، والمفتول نوع جيد من الاخضر .

أوْ إنْ لمْ يضُرَّ الأخْضَرُ بأحَدِ الشَّرْبِ[1] ، أوْ لمْ يُوجَدْ وَلمْ تنعْنَعِ الحِنَّاوِيَّةُ أو مُطْلقاً ، تأويلاتٌ - وَحَدُّهُ أرْبَعٌ وهُوَ الأرْجَحُ ، وفي إجْزاءِ ثَلاثٍ تَرَدُّدٌ ، وَنُدِبَ إنتِقاءُ شَرْبٍ ، ونَظافَةُ مَجْلِسٍ بِعَبَثٍ أُبيحَ ، وتَشْهيرُ ثالِثَه وَرابِعٌ جَمِّرَ[2] ، وَكُرِهَ لِمنْفَرِدٍ بَيْنَ أَرْذالٍ جِدًّا ، وَتَطَفُّلٍ على كَبَرّانِيٍّ ، وَنَقْدٍ عَلى مُقيمٍ ، وَلِفَرَجِيٍّ وَصَبِيٍّ[3] دَقيقُ سُكَّرٍ ، ومَصٌّ وَرَقَةٍ ، وكَأْسٌ مِنْ غَيْرِ الأوَّلِ وَزُيِّفاً[4] .

انتهى نقلنا هذا مشافهة من شيخنا العلامة المحدث الشهير مؤلف زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى رحمة الأبرار المتوفي بمصر في اليوم الثامن من شهر صفر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة والف .

قال الشيخ عبد الجليل برادة المدني المتوفي عام ١٣٢٥ هـ. تقريباً في الشاي :

---

١ - الشرب بالفتح جمع شارب كصاحب وصحب .

٢ - التشهير في عرفهم تسخين البراد ، والتجمير اخص منه وهو جعل البراد على الجمر خاصة .

٣ - الفرجى بفتحتين في عرفهم الساقي .

٤ - المراد بالتزييف غسل ادوات الشاهي .

أرى كلَّ ما تَحوي مَجالسُ أُنسِنا
جُنوداً لِدفعِ الهمّ سلطانُها الشاهي

وليسَ لهــا أمرٌ يَتمّ بدونهِ
وَهـــلْ تمّ أمرٌ للجنودِ بلا شاهِ

وقد خمّس هذين البيتين بعضُ افاضل اهل المدينة فقال :

أَدر كأسَ شاهيٍّ شهيٍّ وأسْقنــا
وفرِّجْ به همّاً بنا قــد تمكّنّا
فاني لعمري دائماً طولَ دهرِنا
(أَرى كلَّ ما تحوي مجالِسُ أُنسِنا
جنوداً لدفع الهمّ سلطانهــا الشاهِي)

تراه عـــلى كُرسيِّه في صحونِه
مليكاً عليــهِ تاجهُ في حُصونِهِ
مجالسُنا تزهــو بلطفِ فنونِهِ
(وليس لهــا أمرٌ يتمّ بدونِهِ
وهل تمَّ أَمرٌ للجنودِ بلا شاهِ)

« وقال بعضهم في تخميسه ايضاً :

أدر أيها السّاقي مُشعشعَ كأسِنا

وأحسِنْ به لا مسَّكَ السّوءُ محسِنا

فإني وكلُّ القصـــدِ بسطُ جليسِنا

أرى كلّ ما تحوي مجالسُ أُنسِنا

جنوداً لدفع الهمِّ سلطانُها الشاهي

إذا ما أتى السّاقي بهِ في يمينـــهِ

تبيّنتُ نجمَ اليُمن فوقَ جبينهِ

وحلَّ بهِ أمرُ السُّرورِ بحينهِ

وليسَ لهـــا أمرٌ يتمّ بدونهِ

(وهل تمّ أمرٌ للجنودِ بلا شاهِ)

وقال الشيخ عبد الجليل برّادة ايضاً :

زُنتَهـــا لي بنتَ شاهي الصّيني

واهْدها لي في تَخوتِ الصيني

وأذبْ لي[1] بَهْرَمانِيّاً عـلى

جامِ دُرٍّ مُذَهَّبِ التّلوينِ

---

١ – المراد به السكر الابيض الباهر .

حكتِ الوجنـــةَ في تَـوريدِها
وَزكيَّ العَـــرفِ كالنِّسرينِ[1]
في ريـــاضٍ لعِبتْ أَعطافُهـــا
حينَ غَـنَّى الطـَّيْرُ بالقـــانونِ

وقال ايضاً :

إذا مجلسٌ لـــلأنس تمّ نظامـــهُ
وما دارَ فيه كأسُ شايٍ معنـــبرُ
لعمري وان حـــازَ المسرّاتِ ناقصٌ
وما هو في عَـــدِّ المجالسِ يُذكرُ

وقال بعض فضلاء أهل مكة :

وشربُكَ للشاهي يَزيـــدك بهجةً
اذا كان مع صحبٍ وفي وسْطهم جَلْوا
ودعْ كلَّ مشروبٍ سواهُ ومِل لهَ
إذا كان متقوناً وفي جوفهِ الحلْوا
وضعْ فيهِ منْ طيبٍ يسمّى بعنبرٍ
كذاكَ حليباً فهوَ أجمعُ للشهوى

(١) النسرين بكسر النون الاولى قال في المنجد هو ورد ابيض عطري الرائحة الواحدة نسرينة

اذا اجتَمعتْ في مجلِس الشربِ هٰذه

فلذّاتهُ تَزهو على المَــنّ والسلْوى

وقال السيد عبد الله بن عقيل :

منــك النباتُ ومني النــارُ أُضرمها

والمـــاءُ مني ومنك الشايُ واللّبنُ

كذا اوانيهِ يا هـــذا تحضّرها

والغَسلُ مني إذا ما مسّها الدَّرَنُ[1]

والصّبُّ منك ومني الشُّربُ اجمعهُ

والشكرُ مني إذا أوليتَ يا فطنُ

مني القبولُ لمـــا يَسخو باخضَرهِ

لكنّ أسْودَهُ عندي هوَ الحسَنُ

ما أحسنَ الشايَ اذا فاحتْ لويزته

كذاك نعناعهُ والعنــبرُ اللّدنُ[2]

باهتْ بــه الشاي أقوامٌ له شربُوا

منهُ وقد طربُوا ما مسَّهمْ حزَنُ

---

(١) الدرن الوسخ وزناً ومعنى .

(٢) عنبر لدن أي لين .

فيه الفوائدُ مــن تهضيم مأكلنــــا
كــذاك قلــب شجيٍّ ناله وَسَن

وهذه الابيات على نمط أبيات العصيدة وهي :

إن شئت مني عصيداً مــــا لها مثلُ
لها شروط بها قــــد يحسن العملُ

منك الدقيق ومني النار أضرمهــــا
والمــاء مني ومنــك السمن والعسل

والغَـرف منك ومني الأكل أجمعهُ
والشكـر مني لما أوليت يا فطـــــن

فذي فـكاهة ذي ودٍّ وذي طمــع
كأشعب قاده الافلاس والأمـــــلُ

وقال الشيخ أحمد بن أمين بيت المال المكي :

إذا زارَ مــن تهواه يومــا مودةً
وقـــد ايقنتْ بالودِّ منك نفوسُهُ

فإن رمتَ أن تحظَـى بلطفِ حديثهِ
وبادرتَ بالشــاهي يطــول جلوسهُ

وإن تسقهِ الشرباتِ يا صـــاح إنه
يقوم إذا دارتْ عليــــه كؤوسهُ

ولبعض أدباء أهل جدة :

إذا مَنْ شاهُ الحِسنِ يوماً بزورةٍ
ورمتَ امتداد المكثِ قدّم له الشاهي

ولا تسقهِ الشربات من خوف أنه
يقوم فنبقى حائرين بلا شاهِ[1]

وقال الشيخ علي بن عبدالله الطيب المدني

إن كان عندكمو شايٌ فجودوا لنا
من فيض فضلكم منه بفنجانِ

فإن يكنْ أخضراً طابَ الفؤادُ به
وإنْ يكنْ أحمراً فاللونُ أغواني

فانكم خير ساداتٍ كرامِ أب
وعمَّ احسانكم للقاصي والداني

وله يخاطب أحد أصدقائه واسمه جمال

أدر كأس التصابي منك ورداً
ودُم في خير عزٍّ مع كمالِ

فشايٌ منك وَسْمٌ ثم وصفٌ
جمالٌ في جمالٍ في جمالِ

---

(١) الشاه بلغة العجم يعني السلطان .

وقال الشيخ محمد الغزال من علماء دمنهور البحيرة بمصر

نصابُ الشاي يُعقد مــن ثلاثٍ
فعوِّلْ يا أخــا العليَــا عليــهِ
ومِنهُ اشربْ ثـلاثاً في ثــلاثٍ
فــاذ الوِترَ مَندُوبٌ إليــهِ

وقال بعضهم :

نصابُ الشاي فنجَانٍ لكــنْ
بشهرِ الصّومِ ليسَ له نِصــابُ

ولبعضهم :

مجالسُ الأنسِ مَهمَا كان مَبلغهـا
منَ السرور فلن تغني عــنِ الناي[1]
كذاك كلُّ فتىً تَعنــهِ صحتُهُ
فـانا في احتيـاجاتٍ إلى الشاي

ولبعضهم :

إذا ما أقمتَ الشايَ املاً لنا كأساً
فاني بملىء الكأس لستُ أرى بأساً

---

(١) الناي آلة من آلاء الغناء .

ومستَندي « كأساً دِهاقاً[1] » فانه
أتى في صحيح الذِكر فاقرأ ولا تنسى

ولبعضهم :

بدَا كالتّبر مِنْ خلف الزّجاجِ
مُحلّى الرأسِ مِن حَببٍ بتَاجِ
له ريحٌ مِنَ النِعناعِ تشفِي
بِبهجّتها المريضَ بلا عِلاجِ

وقال جامع هذه الرسالة غفر الله تعالى له :

هذه أكوابُ شايٍ رُصّعتْ
فبدتْ تبهجُ عينَ الناظرينْ
فتلقفْ كوبةً حمراءَ أو
إن تشأ خضراء تُغري الشارِبينْ
تُنعشُ النفسَ وتَنفى همّها
تجلب الأنسَ لكل السامرينْ
طيبُ العَرف شَهِيّ المحتسى
رائقُ اللون حلالٌ مستبينْ

---

(١) كأس دهاق اي ممتلئة .

كلما رمتَ اكتفاءً قــال زدْ

شربةً أخرَى وَخذهــا باليمينْ

وقال أيضاً :

إذا دعوَتَ كراماً بقــرْبهمْ مُتبــاهِي

تريدُ نفــي همُومٍ عنهم بشتّى الملاهي

فقدّمِنَّ طَعــاماً وأتبعنْهُ بشــاهي

وَأبرزَنْ سَمَوَاراً كالخُود او مِثل شاهِ

ضعالفناجينَ[1] تحكي نَجمَ السما في المياهِ

ثم اسقِهمْ بسرُورٍ وَخفّةٍ وَانتبــاهِ

وَنادمِ القومَ حقــاً وَلا تقلْ أنا سَاهي

وقال أيضاً

ألا فاسْقني فنجــان شايٍ بِعنَبرِ

يَفوحُ شَذاهُ كالعروسِ المعطّــرِ

مُمتّــقةً متقونة[2] الصّنِــع صَافياً

وأحلى مَذاقاً مِنْ عَقــارٍ مخمرِ

---

(١) الفناجين هي اكواب الشاي .

(٢) وضعت تاء التأنيث في الكلمتين لوزن البيت .

فالطَف كوبِ الشاي ما كانَ رائقاً
وما كان شفّافَ الزجاج مبلّورِ
فلا تتركِ الشاي اللذيذَ لِعاذلٍ
خصوصاً بروضٍ زانه نهر جعفرِ

وقال ايضاً :

يَقولونَ إن الشايَ فيه مَضرةٌ
لقد أخطأوا فاشرَبْ هنِيئاً وبَسمِلِ
إذا كنتَ كسلاناً ولم تكُ ناشطاً
وكنتَ ضَجِيعاً للهمُوم المثقّلِ
فبادرْ بشربِ الشاي منْ بعدِ أكلةٍ
تكونُ إذن في صحةٍ مُتعجّلِ
ولا تشربنّ الشاي اذا كنتَ جائعاً
وبَطنكَ خاوٍ مِنْ طعَامٍ مُتبّلِ

وقال أيضاً :

وسَوداءَ قبل الطبخ حمراءُ بعدهُ
بدَتْ بينَ أحبابٍ كرامٍ نَجائبِ

وأعني بهَا الشايَ المباحَ شرابهُ
فشربُكَ ينفي عنكَ همَّ النوائبِ
ثلاثةُ أقداحٍ وإن شئتَ رابعاً
فهذا نِصابُ الشاي عندَ المذاهبِ

وقَال ايضاً :

هذا السّموَارُ [1] ببهجَتهِ كالظّبي النّاتِن أغيدهُ
يبدو كقضيب البانِ لهُ قدّ والخَدّ مورّدهُ
وضيّاءُ الجبهةِ أملسهُ مرفوعُ الطرفِ مسدّدهُ
في منظرهِ ولطافتهِ ونظافته قدْ تحسدهُ
نارٌ والماءُ بباطنهِ ما أحكمهُ ما أصْلدهُ
فأعجبْ مِن ضدّين اجتمعا في الجوفِ وذا ما نشهدهُ
فالماءُ يزَمجِرُ زَمجرةً منها يَتزلزلُ مَقعَدهُ
فإذا ما اشتدّ حرَارتهُ يتميّز غيْظاً مَوْقِدهُ
لا يَهْدَأ ثائرهُ حتى مِنْ ماءِ المُزن تبرّدهُ

(١) السموار آلة لغلي الماء المعد للشاهي وهو يصنع من معادن مختلفة في اشكال متنوعة وقد يبلغ ثمنه من نصف ريال الى خمس جنيهات فاكثر.

وقال ايضاً :

طابَ شُربِ الشاي فاشربهُ عَسَى
أن يَزولَ الهمّ صبحاً او مَسا

إنما الشايُ شَرابٌ طيبٌ
رَشقةٌ منهُ تزيلُ الهوَسا

طعمهُ حلوٌ ومسْكٌ عَرفهُ
وَعقيقُ لونهُ مَا انطمسا

وَهوَ مَشروبُ حَلالُ سائغٌ
مُهضمٌ لا تخشَ منهُ اليَبسا

مُنعشٌ لِلنّفسِ ونافٍ للعنَا
جَالبٌ للبَسطِ فأشربهُ عَسى

فاذا جَاءكَ ضيفٌ طارقٌ
قدّمِ الشايَ فنعمَ المحتسَى

فكؤوسُ الشايِ ان دارتْ على
مَجلسٍ زادَ صفاءُ الجلَسا

أجمعَ النّاس على إدمانهِ
فاتّخذ منه سِراجاً قبسَا

نحمَــدُ اللهَ عــلى تَيسِيرهِ
لجميعِ الخَــلق حتى البؤَســا
فاتركِ الــّلائمَ في بَيدائِــه
ربمّــا ان ذاقَ مِنهُ فطسَــا

وقال ايضاً :

اذا ما مجلسٌ يزهو بجمعٍ مِنَ الاصحاب والخلّ الوفيّ
وكانوا في سُرور وانبساطٍ سَواء غُــدوةً او بالعشيّ
فمدّ لهمْ خِواناً فيه مالمْ يذوقوهُ مِنَ الأكل الهنيّ
وَعطّــرهم جَميعاً عطر وَردٍ وَبخّرهم بذي عَرفٍ شَذيّ
وَقدِّم ساقياً شهماً نَبيــلاً أديبــاً كامِــلاً لا بالغبيّ
اليهِ كاملَ الادواتِ تعطى مِنَ البرّاد والجام الصّينيّ
فتعطيهِ فنَاجيناً لِطَافــاً مِنَ البلّورِ في طَقمٍ بهيّ
كذَا السّموَار تُبرِزه اليهمْ ليزهو باعتــدالٍ سمهَريّ
له شكلٌ بديعُ الصّنع حَقاً رفيعُ القدرِ في عرشٍ عَليّ
فَتطرحُ جَوفهُ ماءً وناراً لِيغلي المــاءُ بالغَلي القويّ
وفي البرّاد ترمِي شايَ أسودْ وَفي الثاني باخضَرَ مغربيّ

فإن شاءوا يُضِيفوا بَرْدَ قوشٍ(١) وإنْ شاءوا بنعناع طريّ

وبعضُ الناسِ يَطلبه مزيجاً مَع اللبن الحليبِ الكابليّ(٢)

يُحليّهِ يغطّيهِ بجوجٍ جميلٍ او حريرٍ زُخْرفيّ

يَصُبّ الشاي في الفنجان صبًّا رقيقاً بالنظافةِ والرّويّ

يكررُ سقيَهمْ حتى ثلاثٍ فإنْ طلبوا يَزيدُ بأربعيّ

فهذا مجلسٌ قدْ فاقَ لطفاً على كلّ المجالِس يا صفيّ

(وقال حمدون بن الحاج)

إيّاكَ إيّاكَ أن ترتاحَ للراحِ
وادفعْ مديرَ كؤوس الراحِ بالراحِ

ومِلْ إلى شرب أتايٍ تروق به(٣)
فليس يعقبه شرب باتراحِ

فيها الأمانِي وشملُ الأنسِ مجتمع
على أمانٍ ولا آمانَ في الراحِ

---

(١) البرد قوش هو نبت عطري الرائحة يسمى عند اهل الحجاز ـ بالدوش.

(٢) الشاي الكابلي لا يستعمل الا في الحجاز ونادراً وصفته أن يؤتى باللبن الحليب فيغلى على النار غلياً قوياً ويوضع فيه الشاي الاسود او الاخضر او كلاهما وبعد ان يطبخ جيداً يشرب .

(٣) أهل شنقيط يسمون الشاي أتاي .

وقال المرحوم الشيخ محمد العاقب الشنقيطي في الأتاي يعني الشاي وهو أخو أستاذنا العـــلامة المحدث الكبير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المدرس بكلية أصول الدين بمصر سابقاً رحمه الله تعالى .

أتانـا أتايٌ لابساً ثوبَ شبهـــةٍ
تَنازَعه فيها الاباحةُ والحَظْــرُ
فطَوراً له شِبه العَسولِ وتارةً
يريكَ بكبريائه أنـــه الخمرُ
هـــو الخمرُ إلا ان فيه منـــافعاً
وليسَ به اثم قليـــل ولا سُكرُ

وقال ايضاً :

أتايٌ هو الشُّربُ الحلالُ ارتشافهُ
وحاشاهُ مِن أن يُستَذمَّ ويُمنعا
مناقبهُ تُنبيك فاستفتِ شَربه[1]
ولا سيَّما ما كانَ منه مُنعنَعا

(١) الشرب بالفتح جمع شارب كصحب وصاحب .

وقال الشيخ ابراهيم بن الشيخ الشنقيطي

سقانا مَن له الاجمال مال كؤوساً لا تُمَلّ ولا تُمال
يُنال به الرضا ويُنال وِدّاً وذانِ هما حقيقةُ ما يُنال
ويُنفِق ما يحبّ لنيل برٍّ لقدقال المهيمن «لنْ تَنالوا»

وقال بابا بن الشيخ الشنقيطي

يقيمُ لنا مولايَ والليلُ مقمرٌ
وأضواءُ مِصباحِ الزجاجةِ تزهرُ
وقد سَنحتْ ريحُ الشمال على الربى
نسيماً بأذيالِ الدجى يتأثرُ
كؤوساً من الشاي الرفيع شهيةً
يَطيبُ بها ليلُ التمام فيقصرُ
تخير من تجار طنجة شايها
وخير لها من ثلج وهران سكرُ
قواريرُها والشايُ فيها يزينها
وقد زينته جوهرٌ فيه جوهرُ
ولا غرْوَ ان طابتْ صنائعُ ماجد
شريف فماء العود من حيث تعصر

وقال عمر افندي الآنسي البيروتي :

أدم شُربَ الأتاي فان فيها منافعَ ليس توجد في سوَاها
مآثرَ تمنحُ السفهاءَ حلاً وأربابَ العلوم عُلاً وجَاها
إذا جُليتْ مآثرُها تجلّت على جلساءِ حضرتها سَناها
فلا لغوٌ ولا تأثيمَ فيها ولا ما يسلُبُ العقلاءَ نُهاها
ولا ما يلحِقُ الأنسانَ جهلاً براتِعَةِ البهائم في فَلاها
ينالُ بها السليمُ نشاطَ جسمٍ كما نالتْ بها المرضى شفاها
ويعبِقُ طيبُها فينمُّ مِسكاً فينعشُ روحَ شاربها شذاها
سقى صوبُ الغمام بها ربوعا تحياتِ الحباحبِ من سَناها
يمرُّ بها الصَّبا المعتلّ يُروِي لنا خبراً صحيحاً عن سَناها
نباتٌ فاخرٌ يا فخرَ ارضٍ نمتهُ عليه تحسِدهُ سماها
إذا لم يُوجد الابريزُ فيها فإنّ نباتَها أحلا حُلاها

وقال محمد افندي جاد الله

أينكرُ إكسير ويودى به النكرُ
وفي الشاي آياتٌ يحارُ بها الفكرُ
تأملْ تجدْ ما قيل فيه بعينهِ
بها بيّناً كالشمس يظهرُها الظهرُ

على أنهـــا امتازتْ بأشياءَ جمةٍ

فحقّ لها دوماً عليه بهـــا الفخرُ

تفيدكَ أيامَ الشتـــاءِ حـــرارةً

وفي الصيف ترطيباً اذا مسّكَ الحرُّ

بهـا تكتسي الكاساتُ أبهجَ حلةٍ

علاها حُبابٌ دونها الأنجمُ الزهر

كذائبِ ياقـــوتٍ بدرٍّ مرصّعٍ

وما ذائباً من قبلهـــا رصّع الدر

تروّحُ أرواحاً روائح نشرهـــا

فكم من هموم قد طوى ذلك النشر

بمنظرهـــا الزاهي تقر نواظر

ومن نورها الوضّاح ينشرح الصدر

إذا دارتِ الكاساتُ في مجلسٍ ترى

كأنّ نفوسَ الناسِ من شوقها طيرُ

حقائقهُ جلّت عَن الوصفِ عادةً

تفــرّد في إدراكِ آلائهـــا السر

فاكرمْ بها حازتْ محاسن بعضها

يضيق لدى ايضاحهِ النظمُ والنثرُ

فـلا تتركنْهـا بُكرةً او عشيةً

ففي نفعها ما لا يحيطُ به الحصرُ

ولبعضهم

لا أشربُ الشايَ إلا مِن يديْ رَشأٍ

تَحكيهِ وجنتهُ والطعم مِن فيهِ

أصبرّ النفسَ إن تاقتْ لوجنتهِ

بجمرةِ الكأسِ خوفاً مِن مآقيهِ

وقال الشيخ سليمان الحوت

دعوا شربَكم للخمر فالخمرُ مسكرٌ

وفي الشرع كلّ المسكرات حرامُ

وهيمُوا بشربٍ للأتايِ فانه

حلالٌ وليس في الحلال ملام

وكونوا عليه مدمِنين لأنه

شفا النفس فيه إن عراها سقام

يثير نشاطاً يبسط الكف بالندى

فمن ثم كل الشاربين كرام

ويكشف غم النفس سراً وجهرة

ويوقظ جفن العينِ حِين تنام

ويفتح باب الشهوتين وخير ما اشـ

تهته الطباع باءة وطعام

وفي الوجه يكسو حمرة ونعومة

كأن بها ورداً سقاه غمام

إلى أن قال :

وآدابه شتى ويزداد حسنه

إذا راق ندمان ورقت له جام

هي النعمة الكبرى على كل شارب

وإكسيره لا قهوة ومدام

ومذهبنا ان لا يشاب بغيره

سوى العنبر العطري فيه ختام

وقال أبو مدين (ولم نقف على لقبه)

ألا فاسقني كاسات شاي ولا تذر

بساحتنا من لا يعين على السمر

فوقت شراب الشاي وقت مسرة

يزال به عن قلب شاربه الكدر

تخير حسان السمت عند شرابه

فللعين حظ لا يزال من النظر

وخلل شراب الشاي بالذكر واستعن

به في الليالي الناضرات على السهر

ونادم خيار الصالحين فمجلس

به صالح يقضى به غالب الوطر

تَجنّبْ سوى من قد ذكرت وإن غدا

يرى الفضل فيما عند مجلسه استقر

ترى مجلس الشايات في العين واحداً

فيختلف المعنى وتتحد الصور

ولا بد من إنشادك الشعر عنده

ليطرب منك القلب والسمع والبصر

وقدم من الاشعار مارق لفظه

وما راق معنى أن ذلك معتبر

وانعش فؤاداً بالنسيب وذكره

وما للمها من حسن جيد ومن حور

ولا تنس ذكر البان والرمل والحمى

وما هب من ارواح نجد لدى السحر

وجدلي من شعر الوقائع بينهم

ومن غاب من عشاقهن ومن حضر

وما قيل في مدح الملوك وفخرهم
ومن عز قدماً من ربيعة أو مضر
وما قيل في مدح البلاد وأهلها
وما قيل في مدح المقام وفي السفر
إذا تم هــذا عند شرب فــإنه
لعمرك شرب مـا بمجلسه عور
لامثاله فلتدع مـا شئت وادعني
والا فدعني عنك واستعمل الحذر
فما كل شرب لاح يستفــزني
ألارب شرب كان لي فيه من ضرر
ولكنني أعضى وأصبر علــني
أفوز بأجر قــد أعد لمن صبر

وقال احد الأدباء :

من الشاي المعنبر هات كاساً بروض فله تبهجنا الزهور
على بسط الزبرجد إذ جلسنا وفي الأغصان تطربنا الطيور
وامــواه حصاها لامعات مــلونة يقلبهــا الخرير
بجمع أحبـة وطريف عيش وكاسات تدور بها البدور
فيحكى لونها الذهب المصفى وفاح بنشرها المسك "عبير

وأصوات الكؤوس لها رنين كرنات المثاني إذ تدور
لها رقص لطيف حين تبدو إلى جمع الرفاق وتستنير
فلا تبرح إذا مزجت بلهو مباح لا يفارقه السرور
بلطف هاتها يا صاح دوماً بلا حد إذا وجد السمير

وقال الأستاذ أحمد صافي النجفي في وصف الشاي في كتابه الأمواج .

لئن كان غيري بالمدامة مولعاً
فقد ولعت نفسي بشاي معنبر
إذا صب في كاس الزجاج حسبته
مذاب عقيق صب في كأس جوهر
به أحتسي شهداً وراحاً وسكراً
وأنشق منه عبق مسك معنبر
يغيب شعور المرء في أكؤس الطلا
ويصحو بكأس الشاي عقل المفكر
يعيد سرور المرء من غير نشوة
فأحبب به من منعش غير مسكر
خلا من صداع أو نزيف كأنه
سلافة أهل الخلد أو ماء كوثر

فمنه اصطبـاحي واغتبـاقي ولذتي

ومنه شفائي مــن عناء مكرر

كأني إذا مـا أسفر الصبح ميت

وإن أرتشف كاساً من الشاي أحشر

فلله أرض الصين إذ أنبتت لنـا

ألذ نبـات بالمسرة مثمـر

لو ان ابن هاني فاز منه بجرعـة

لراح بأقداح ابنة الكرم يزدري

ولو ذاقه الأعشى وحكم في الطلا

وفيـه لقـال الفضل للمتأخر

فللفم أحلى مشرب من مـذاقه

وللعين من مرآه أجمل منظـر

عجبت له يكوي اللسان حرارة

ويطفىء نيران الجوى المستعـر

لقد نال من طـبع الحياة حرارة

فإن يسر في ميت من الناس ينشر

إذا فار ما بين السماور مـاؤه

سمعت له أنغـام ناي ومـزهر

فاشرب مرتاحاً عـــلى نغمـــاته
كؤوساً وما يغلى له غير سكر
كأن به صباً ينوح وقـــد ذكى
لهيب الهوى منـــه بقلب مسعر
فيسكت إن تخمـــد به نار حبه
وإن تذكِ فيهِ لوعةَ الشوق يزفر
وإن بلغت نار الهوى فيه حدهـا
بكى لوعـة في دمعـــه المتحدر
كأن به بركان (فيزوف) ثاقب
فإن ثار يقذف بالشرار ويمطـــر
كأن بـــه نار الغرام تمثلت
لدى العين يخشى قربهـا كل مبصر
تمـد بأفـلاذ الزنوج إذا خبـت
فتحكي جحيم النار في يوم محشر
فثم تخـال الفحم أفلاذ مهجـــة
من الليـل تلقى في نهار منـور
فإن ضاق صدراً عن تأجج شوقه
تأوه في أنفـــاس مـاء مبخـر

لئن يمتلك يوماً جناحاً يطير به
إلى حيث من يهوى وبالوصل يظفر
كأن كؤوس الشاي صنع نواسك
تحيط بمعبود من التبر أصفر
وتفتح فاهاً بالدعا فيجوزها
بذور لجين أو بدرّ مقطر
وأحسبها حول السماور تارة
بنات مجوس قد أحطن بمجمر
وتحكي لنا ما بين بيض صحونها
تماثيل در في معابد مرمر
وأبريقه فوق السماور مرتق
كمثل خطيب جالس فوق منبر
يفوه ولكن في عقيق معطر
وينطق لكن من كلام مصور
سماوره يبدو كشيخ معمم
من الصين يزهو في رداء معصفر
إذا ساق هم الدهر نحوي جيوشه
ألاقيه من أقداح شاي بعسكر

فقد أحتسي جاماً وأرشف ثانياً
يفر الأسى عني بجيش مبعثر
فأشرب كأس النصر جذلان ناعماً
وأزهو وقد أدركت عز المظفر
كأني بكاسات لنصري أسرعت
ومن ينتصر في أكؤس الشاي ينصر
دع الراح والأفيون واشرب عصيره
مداماً ولا تشرب مدامة حيدر .

وقال الشيخ محمد المبارك الجزائري الدمشقي

قهوة الشاي وهي ألطف قهوة
لم تدع لي في قهوة البن شهوة
أبسوداء يعدل الشاي وهو الـ
شاه كلا لتلك أعظم هفوه
لو درى الناس ماله من مزايا
ما خطوا نحوها لعمرك خطوه
ما ابنة البن في الحقيقة إلا
من جواريه صادفت حسن حظوه

وحوت دولة لدى كل حبرٍ

ماجدٍ كان في المكارم قدوه

لكن الشاي بغيـــة القوم إذ ما

عقدوا في مرابع البسط حبـــوه

أو دعاهم داعي الهناء إلى مو

رد صفو في روضةٍ فوق ربـــوه

فهو أبهى لوناً وأشهى مذاقـــاً

وهو أزكى نشراً وأعظـم نشوه

طاب بالسُّكرِ اللذيذ شرابـــاً

فادريت أقداحه وهي حـــلوه

ونمـــا فضله بحسن قبول

في قلوب لها مع الله جلوه

راحــــة تنعش النفوس ارتياحاً

فلها هــــزة إليه وصـــبوه

يشرح الصدر بهجــــة وسروراً

لذة السكر لا تعادل صحوه

كم أراق الصهباء من كان يهوى

شربها عندما احتسى منه حسوه

فأدر صاح منــه كأساً دهاقاً

ليس لي عنه يا بن ودي ســـلوه

وارتشفه على بســـاط نشـــاط

منشداً من أشعار قيس وعـــروه

وانتهز فرصة من الدهر واصحب

صفوة قد جلت مــن العيش صفوه

راقها الشاي حيث راق صفــاء

وهـــزار الأفراح ردد شدوه

فـــاجتلته على رخيم المثاني

في رياض أبدى بهــا الزهر زهوه

منه نوع زبرجــدي اذا مــا

لاح في الكاس شمت ماء وجذوه

ثمَّ مغنٍ عنْ عنبر وعبيرٍ

بشذاه دعا الورى خير دعوه

وحبا الصب واردات التهاني

من حبيب رثا له بعد جفوه

ذاك أعلا أنواعه عند قومٍ

ما نبتهم عن خلوة الود جلوه

ذاك أسنى الأسباب في جمع شملٍ

الأنس يا ذا الوفا وأوثق عروه

ذاك عين الاكسير معنى يعيد الـ

قبض بسطاً والذل عزاً وسطوه

دِرهَمٌ مِنهُ رَدَّ قِنطارهمَّ

فرحاً قد جلا عن القلب شجوه

فتعاطاه كل حر رقيق

كان للناس فيه أحسن أسوه

يتجلى في الكأس شبه نضار

في لجين يولي الفتى أي ثروه

أو كشمس قد أشرقت في بدور

قد تجلت منه دجا كل غفوه

يا له من زمرد عاد تبرا

فاكتسى الناس منه أحسن كسوه

كللته فرائد من جمان

ربما خالها أخو المجد رغوه

كم له في الورى منافع لكن

لم يشنها إثم مشوب بقوه

يبهج النفس يكثر الأنس حالاً
يورث الهضم يطرد الهم عنوه
ولذا قيل منية النفس فيه
ينبغي شربه مساء وغدوه

ولبعضهم باللغة العامية :

السُّكَّرْ والشايْ والنعناعْ مَا خلَّى في الراس أوجاع
والسكرْ والشايْ والزيتْ هواللِّي عِندنَا في البيتْ

ولبعضهم باللغة العامية أيضاً :

شربُ الشايْ ما في شَكْ ليسَ فيه منه مفكْ
رُشدِي جا عِندكْ يِنْدَكْ عَبَاتو في العُرقوبِ إتْحَكْ
يحكِي عِندكْ هكْ وَهكْ إنتَ وَهـو دَقّ حنَكْ

ولبعضهم باللغة العامية المغربية :

اشربْ من شاهِي بنّونَهْ[١] سَمْحُ عيُونهْ
أحمرْ وأخْضرْ في لوُنهْ تدرسْ فنونهْ

---

(١) بنونه اسم رجل من تجار الشاي بمصر .

إشربْ مِنْ شَاهِيُّو وَقيِلْ   دَمعِيثمَّ عليهِ سيّل
مَا هو عَيِّلْ . بو شَارِبْ مَنقوشْ مُنيِّلْ

إشربْ منْ شاي متكيّفْ   إن كنتَ مشتِيّ ومصيّف
عبّادِي مِن عندِ شِرَيّف[1] دمُّ الساقِي عَليَّ خُفيّة

* * *

شاربْ من شاهِيُّوا وَطاربْ   فرحَانْ زَيِّ العبدِ الهار
والسكرْ أبيضْ كالشايِبْ   في الفنجانِ الصافي راس
فنجانْ أحمرْ فنجانْ أخضرْ   مرصُوصْ في تبسيِّ الكات
والبرادّ الصِيني دافي   والعنبرْ في بَطنو دَاي

* * *

وقال السيد صالح بن علي الحامد العلوي صاحب كتاب نسمات الربيع :

روق لها ماء الغمام وهاتها
لي والحباب يدور في جنباتها

(١) اي ان عبادي اشترى الشاي من شريف .

صهباء ما عبثت بها يد عاصر
ما عاشرت الا اكف سقاتهـــا
من جيد الشاي استحال عصيرها
كادت تحاكي الشهب في جاماتها
قد راق منظرها ورق زجاجها
فلعله لم يـــدهقوا كاساتها
لولا انتصاف الكأس خلت بأنها
في كف ساقيها تقوم بـــذاتها
وإذا الهموم على النديم تكاثفت
وبدت أشعتها جات ظلماتهـــا
َفيها غنيتُ عن التي سلب النهى
من شأنها والاثم من تبعاتهـــا

* * *

يا ساعة مرت كلمحـــة بارق
ذاقت بهـــا نفسي نعيم حياتهـــا
عاطيت فيهـــا الكاس خوداً كاعباً
ماء الشباب يجول في وجناتها

فتمايل الأغصان في اعطافها

وشمائل الصهباء في لحظاتها

جاءت اليّ وخدها متورد

جزعاً لخوف رقيبها ووشاتها

قلت اسقني وأمدني حتى إذا

سكبت بلغنا في المنى غاياتها

طوراً تنازعني الحديث وتنثني

طوراً عليَّ بعينها وَشِكّاتها

فأجبت معتذراً لها وأودّ لوْ

إني بذلت الروح في مرضاتها

أوتيت ذاك اليوم لذاتي ولـ

ـكني كففت النفس عن حرماتها

الله يعلم ما همت بريبةٍ

ولتذهب الغوغاء في تهماتها

لا يحفل العفّ الكريم بقولِ مَنْ

نسبوا إليه فِريةً لم يأتها

ولبعضهم :

إشرب من الشاي الشهي فإنه
شرب الكرام وتحفة الجلاس
لا سيما إنْ بالحليب مزجته
عند الصباح فشهوة الأنفاس
والأخضر الموصوف إحذر تركه
فوق الطعام فليس ذا من باس

* * *

ولبعض شعراء الأحساء في الشاي وساقيه وهو رقيق المعنى. قاله حين زيارته لبعض أصدقائه بمكة المكرمة عام ١٣٥٧ هـ. في وقت الأصيل وقد مالت الشمس للغروب فصنعوا له شاهي وعند تقديم الفنجان اليه طلبوا منه أن يصف لهم الكاس فقال إرتجالاً :

رُبَّ ساقٍ ماهرٍ في صَنعتهْ   قَربتْ آلتهُ مِنْ غرّتهْ
عَرَضَ الشاهي بوقتٍ شمسهُ   وهب الشاهي لها من حمرتهْ
قال صف لي كاسناً في صحنه   قلت هذا قمر في هالتهْ

وقال بعض الفضلاء :

وفنجانٍ يُباع بملكِ كسرَى لذيذِ الطعم والنعناعُ فيه
علقتُ بهِ وحبي فيه يَرْبُو لِشبهِ الطعمِ فيهِ طعمَ فيهِ

* * *

ولبعضهم :

أخذتُ زجاجةً مِن كفّ شـاهِ
فريدٍ في الآنام بـلا اشتباهِ
وحين رشفتُ منـه الراح صرفاً
قعـدت للثم ذاك الثغـر ساهى
ولمـا أن سكرتُ وقلتُ يا ذا
أتبرٌ أم يواقيتُ الشفـاهِ
فديتكَ يا مديرَ الراح قل لي
أخمرٌ مـا أدرتَ فقـال شاهي

وقال الشيخ عبد الرحمن بن أبي بكر الأحسائي :

اجتث من عاب ثغراً به الجمـال تلالا
مستفعلن فاعـلاتن سبحان ربي تعالى

يا ساقي الشاي يا من كساه ربي جمــــالا
إنا رأينـــاك بدراً لذاك فقت الهـلال
حاز الهلال انمحـاقاً وأنت حزت الكمالا
هات أسقني الشاي صرفاً وعــــاطنيه وصالا
ففي ثلاث زجاج شفـاي ان تتوالى
وإن تزدني فخمس والسبـع تزكي الخيالا
وإن تزدني فهمـي إن زدتني منه زالا
فـلا تخيب رجائي ولا تجبني بـــلالا
ففيك أحسنت ظني وفيك صغت المثالا

وقال بعضهم في مجلس شاي :

ومجلس لذة أمسى دجاه يفيء كأنه صبح وخير
تجمع فيه مشموم وشاي وأوتار وولدان وحور
تلذه الحواس الخمس فيه بخمس يستتم بها السرور
فكان الضم قسم اللمس منه وقسم الذوق كاسات تدور
وللسمع الأغاني ، والغواني لأعيننا ، وللشم البخور

* * *

وقال بعض الفضلاء :

صفا الشرب أطيب للنفوس   وأليق بالمقيم وبالكؤوس
وأطيب ما يزيد الكاس طيباً   موافقة الجليس مع الجليس

وقال ابن أحمد بور الشنقيطي :

بادر الى الكاس واشربها بأنفاس
وخذ من الشاي بين الكاس والكاس
والكيس اختر همو من دون غير همو
فلن تطيب كؤس دون اكياس

* * *

وقال غيره :

نعنع الكاس إن أردت سقائنا   لا خير في كاس بلا نعناع
وإذا أردت قرابتي ومودتي   زدني على تثليثها برباع

وقال بعض أدباء الشناقطة :

أتَايُ في شأن الفتى النَّبِهِ
إن كان يكرم مثوى مَنْ ألمَّ بِهِ

ولا يضِنُّ بـــه إن كان ذا سعةٍ
ولا يفرقه كالمرء مـــن أبـــه
والمبغضون له والمولعون بـــه
كلاهما حائد عـــن منهج الشبه

وقال محمد المختـــار بن الفقيه يحي الشنقيطي المتـــوفي سنة ١٣٥٤ هـ .

إذا جاءت الشهباء [١] لاغبها الوبل
على غارب المفتول يلقى لها الحبل
وإن جيء بالمفتول من قبـــل نملة
مساكنكم قيل ادخلوا أيها النمـل

---

(١) في بـــلاد المغرب والشناقطة يسمى الشاي أتاي ولا يوجد عندهم الا الشاي الأخضر الجيد وهو ثلاثة انواع الشهباء والمفتول والنمل وهو اردؤها وغالباً يمزجون الشاي بورق النعناع ويتغالون في أدوات الشاي المعدنية والفضية وكل يقتني منها بحسب مكانته ومقدرته.

وقال قاضي شنقيط بشير بن أحمد بن محمود المتوفي سنة ١٣٣٠ هـ تقريباً في الشاي

إذا جدت بالدنيا وكل نعيمهـــا
وروح بجسم بالبقـــاء ممتـــع
كأن لم تجد فيهـــا بوزن بعوضة
إذا لم تجد فيها بكأس منعنـع

* * *

وقال آخر من أهل شنقيط أيضاً :

شرب الأتاي يفرّ منـــه الواحدُ
واثنـــان شربهما له قـــل باردُ
وثلاثـــة فيهم تـــدوم مسرة
ولذاذة وبشـــاشه وتـــواددُ
وإذا عـــددتهمو فكانوا أربعـــاً
فأطـــرد ولو أن المخمس والدُ

وبمناسبة عدد الأصدقاء في المجالس الخاصة يقول بعضهم :

خير المجالس خمسة أو ستة أو سبعة وعلى الكثير ثمانيةْ
فاذا تعدّى صار شغلاً شاغلاً وتكسّرت بين الرجال الآنيهْ

وقال بعضهم ايضاً :

ومن سقى ضيفه الأناي[1] أكرمه
لم يجد شيئاً وإن جلت فوائده
بذا جرت عادة الأيام وانسحبت
والدهر لا بد أن ترعى عوائده

وقال الشيخ العلامة حمدون بن الحاج الفاسي في الشاي:

وصينية تزهو بروض زاهر
خلع الجمال عليه أحسن خلعةِ
برادها ملك تبرز وسطها
ولذا الكؤوس أمامه قد صفتِ
نلت المنى زال العنا ولك الهنا
يا شارباً كأس الأتاي بدلجةِ

ولأبي العباس السيد الطاهر السملالي في مدح الشاي

إذا الاتاي صب في الكؤوس
رأيت له سروراً في النفوس

(١) الأتاي هو الشاي بلغة أهل شنقيط .

وإن أبدى إلى الندمان حسنـــاً

رأيت نجـــوم هم في طمـــوس

يحمـــل حسنه الابليم فـــاختر

لنفسك جوهراً عذب النقوس[1]

* * *

وقال بعضهم :

باسم الإله الخالق المنـــان الواحد الفرد العظيم الشان

سبحان من أخرج للعبـاد مـــا لا نعده من الايادي

وأنبت الاشجار في البراري فنفعهـــا بين الانام جاري

فيها شجيرات تسمى شاهي نافعـــة للعـــاشق الاواه

والشاه في تخاطب الاعجام هـــو المليك في لسان سام

وفي المجـــالس له التصور وكل جهـــة له يوقـــر

وقل أن تلقى من يقول لا أشربـــه يضرني احتمالا

إلا إذا كان ضعيف العقل غير ملاحظ دليل النقـــل

فربمـــا يقوله ثم إذا شدد قـــوله لديهم نبـــذا

---

(١) الابليم العنبر والنقوس جمع نقس وهو الاصل .

أمــا بيان شربــه فاشتهرا　له غنى عن البيان للورى
لكن إذا أردت ذاك فضعن　برادك الابيض من صين الزمن
على فويق النار فى الكانون　ومــا يشابهه من المــاعون
ثم إذا فــار فخذه يا فتى　ولفه تحت الثياب ساعتــا
ثم اشربنه في ذوات النور　من الفناجين من البـــلور
واشرب ثلاثةأو اشرب أربعا　هو المفيــد يا فتى فاتبعـــا
ما قلته اقبله بــلا التفات　إلى كلام الناس في الجهات
وإنني بغير خــوف وملق　اشرب سبعاً باسم فالق الفلق

ولبعض فضلاء الشناقطة :

قصيدة فكاهية لطيفة وقد مثّل الاتاي (اي الشاي) رجلاً ومثّل الدخان امرأة رغباً أن يتزوجا من بعض فقـــال عن لسان حالها :

الحمدُ للهِ الذي قـــد أطلعا　بدرَ محيّا المصطفى فطلعا
ثم صلاة الله يتلوها السلامْ　على المُكمّل جوامعَ الكلامْ
والآل والصحبِ الكرام الفضلا　المتعاطين أباريقَ العُـــلا
هذا وقصدي نظمُ ما تيسرا　من شأنقصة ترى في ذا الورى
نظمتها نظمــاً بديعاً محكما　لست محلّلاً ولا محرِمــا

بل إنمـا نظمتهـــا لينتبهْ — مَنْ لم يكن في أمرها ...

لما ثوَتْ ذاتُ الدخان أزمنا — ولم تجِدْ كفواً يكون ...

سمعَ أتايُ بهـــا ثم شرعْ — في نيلها تخدى به نجب ال...

نجبٌ تبارَى بينها شم الذرا — يرعفن بالامشاج من جذب ال...

خوص العيون جائلات الانسع — مرتفقات ما بهـــا من ...

ولم تزل تخدى به خوص العيونْ — ودمعهُ مِن شوقها غيرُ ...

حتى أناخ نجبـــهُ ببابهـــا — فقام قاصداً الى بوا...

فاستفتح البـواب ثم فتحـا — بوابها حين الاتاي است...

ودخل الاتايُ غيرَ مستفيقْ — مِنَ الهوى وذو الهوى غير ...

ألقى لِها زِمــامهُ ورسنهْ — مِنْ كَلَفٍ يزداد في كل ...

فصافحته عندمـــا تلاقيـا — فضحكا لذاك حتى است...

خطبها من حينهِ وهي تميلْ — من فرح وما بها عنه ...

قال الى متى وانتِ مطرقهْ — قالتْ له وافق شنّ ...

قال لها ما اسم أبيك يا فتاتْ — وما له لغير وجهها الت...

قالت له الشيطان والنفسُ تقولْ — بنتي أتاها بعلُها خيرُ ال...

فقـد دَعتْ وليّها وأسمعتْ — فقامَ مُسرعاً لها حين ...

قال لها مَن ذا الذي تكلما — قالتْ فتىً يشكو الهوى ...

متيماً مِنْ برح ما وجدا مِنْ شوقه والحال فيه أنشدا
ومنْ الجلبات الحيَا ازاحا معارضاً له حوى افتضاحا
لمقدَ الشيطانُ بنتهُ لمنْ أتاهمو يشكو الهوَى مُتيماً
زوجانِ للسحر يعلـّمانِ وإنّ هذانِ لساحرانِ
لجمعَ الشيطانُ مالَ الفقرا لذى الوليمة لَهمْ محتقراً
وجمعَ الاتايُ مالَ الاغنيا فأصدقَ الخودَ بهَا فاستغنيا
لولدا مِن بعدِ يومينِ رجلْ أعزّ منه في البلاد لم يَجلْ الخ[1]

ولنختم ما جاء في الشاي ببعض أبيات جاء في رسالة « تحفة الاحباب في ذكر ما طاب من الشراب » للعالم الفاضل الشيخ احمد بن أمين الشهير ببيت المال المكي رحمه الله تعالى وقد نظمها سنة ١٢٨٩ هجرية وطبعها مع نظمه الثاني « تحفة الملوك المكية » سنة ١٢٩٠ هجرية ومنظومته الاولى التي في الشاي تبلغ نحو مائة وعشرين بيتاً قسّمها الى جملة فصول وهي : (١) في بيان تعريب اسم الشاي وشهرته (٢) في بيان سبب حدوثه (٣) في بيان أقسامه (٤) في بيان مزاج الاخضر والاسود منه (٥) في بيان منافعه (٦) في بيان مضرته واصلاحه وبدَله

(١) وهي قصيدة طويلة أعرضنا عن اتمامها لطولها .

(٧) في بيان كيفية طبخه وطريقة استعماله (٨) في بيان استعماله بالعنبر .

ولا بأس أن نقتطف شيئاً من منظومته الظريفة بدون تعليق او شرح ، فقد قال رحمه الله تعالى في بيان أقسام الشاي :

الشاهي قسمان أخضر وأسودُ والاحسن الاسود والمؤيّدُ

وبعضهم مال وقال الاخضر هو اللطيف الاحسن المفتخرُ

وليس عندي لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتا

حقيقة الاسود قد قيل زهر وورق قيل وليس معتبر

والورق الاخضر وهو ظاهر لمن له به التماس باهر

نباته منبته بالصين بيهجوادٍ جاء باليقين

وهو نبات مشبه بالقضب ولونه كما أتى في الكتب

وفيه نوع مرَّةٍ بأصله تزول عند طبخه وفصله

مزاجه بحسب التجارب والفهم حارّ يابس فقارب

فقيل حارّ يابس في الاول وقيل في ثانية حارّ معتل

وفيل بارد كذا يفهم من قول ابن اسحق على ما قد زكن

وحارّ الاسود جافي الثانية لكنه رطب فخذ بيانيه

فخذ منافعاً أتت في الشاهي مقوّ للانعاظ ثم الباهِ

يمنع أيضاً سرعة الانزال مهضّم الاكل البطي في الحال

ويحسن اللون ويدفع الجشا كذا يزيل البخر وأمراض الحشا

مقوٍّ للدماغ ثم القلب مفرّح له مزيل الوصب

ويمضي الناظم يعدّد منافعه الى أن يقول :

فهاكها فوائد في الاخضر وقيسها في الاسود المفتخر

كما أتى عن جملة أطبّا قد جرَّبوهما وهم ألبّا

فذكروا منافعاً في الاسود هذي وغيرها فملْ للجيّد

وحسّنوا الاسود في أمّ القُرى فملْ إليه يا أخي بلا مِرا

لانه رطب وذاك يابسُ والرطب في مكة جاء يجانس

لكن أقول إن تكن ذا بلغم فاشرب من الاخضر ياذا واغنم

وإن تكن بغير ذا فالاسود للطبع فهو حسن وأجود

لكنما الاخضر جافي الهضم أقوى من الاسود يا ذا الفهم

ثم يمضي الناظم يعدّد مضارّه الى أن يصل لكيفية طبخه فيقول :

وإن أردت طبخه يا صاح في الليل إن شئت اوالصباح

فخذ من الماء القراح الجيد وصبّه في السموار واوقد

واغـْليهِ غلياً جيداً على الوَلا   كما أتى في قولِ بعض الفضـــلا

لا تغترِرْ بصـوتـه اذا غـلا   حتى ترى البخار في الجوّ عـلا

ونظـّفِ البرّاد إن فيه دَرَنْ   وضعْ من الشاهي فيه واغسِلنْ

واسكب عليه الماء إن كان غلا   ولا تضع لا سكـّراً ولا َحـلا

وغطـّهِ وضـعْ عليه مِنشَفهْ   واصبرْ عليه ساعة واستعرِفـَهْ

وهكذا يمضي النـاظم رحمه الله تعالى في قوله ووصفه حتى يختتم منظومته اللطيفة ، ولم نذكر جميعها لئلا يطول الكلام .

القسم الثاني

مَا جَاء في قهْوة البُن [٢]

قال بعض الفضلاء :

رُبَّ سوداء في الكؤوس تجلّت
تهب الرّوح نفحةً من حياة
عندما ذقتها تحققت منها
أن ماء الحياة في الظلمات

وقال برهان الدين ابراهيم بن المبلط شاعر القاهرة المتوفي سنة ٩٩١ ه :

يقول عذولي قهوة البن مرة
وشربة حلو الماء ليس لها مثل
فقلت على ما عبتها من مرارة
قد اخترتها « فاختر لنفسك ما يحلو »

وقال الشيخ عبد الجليل الدرّا وهو من اللطائف ما قيل :

هات اسقني قهوة بكرية فضحت
بكر المدام وروّق لي الفناجينا

تدعو الى نحو ما فيه البقاء ولو
دعت الى نحو ما فيه الفناجينا

لو أن ألفاً أحاطوا حول ساحتها
قصد النجاة رأيت الألف ناجينا

يا ربة الأنس َحلينا حماك فإن
نطلب فجودي وإن نسأل فناجينا

أما سمعت لسان الحال قائلة
إشرب هنيئاً وقم ليلاً فناجينا

وقال مامية الرومي :

أنا المعشوقة السمرا وأجلى في الفناجين
وعود الهند لي عطر وذكري شاع في الصين

وقال باكثير عبد المعطي بن الشيخ حسين المكي الحضرمي المتوفي سنة ٩٨٩ هـ .

أهلاً بصافي قهوة كالأثمد جليت فزينت بالخمار الاسود

لما أديرت في كؤوس لجينها بيمين ساق كالقضيب الاملد
يحكي بياض إنائها وسوادها طرفا كحيلاً لا بكحل المرود

وقال شهاب الدين أحمد :

هِم بابنة البن فقد ودها للطفها أهل الحجا والدّها
مذ سادت العنبر لوناً شدا لا تدعني إلا بيا عبدها

وقال محمد بن رضوان السيوطي المتوفي سنة ١١٨٠ هـ :

أسقنا من يديك قهوة بن وأدرها ممزوجة برضابك
لا تحكم سوى كؤوسك فينا أنت كفؤ ونحن من خطابك

وقال الشيخ محمد البكري الصديقي :

شربنـــا قهوة من قشر بن تعين على العبادة للعبـــاد
حكت في كف أهل اللطف صرفاً زباداً ذائباً وســط الزبادي

وقال الولي أحمد بن شاهين الشامي :

وقهوة كالعنبر السحيق سوداء مثل مقلة المعشوق
أتت كمسك فــائح فتيق شبهتها في الطعم كالرحيق
تدني الصديق من هوى الصديق وتربط الود مــع الرفيق
فلا عدمت مزجها بريق

ولبعضهم في القهوة :

هي سوداء وهي بيضاء معنى	يحسد المسكَ عندها الكافورُ
مثل نون العيون يحسبه بنا	س سواداً فانما هـو نورُ

وقال بعصهم فيها :

أقول وقد دارت بنا بُنٌّ قهوة	وقد سرني منها الغداة صبوح
أصورة غزلان بفنجان قهوة	إذا زفهـا ساق الى صبيح
أم الظبي حقاً قد تردى به فمن	دم طفح المسك الذكي يفوح

وقال آخر في قهوة البن :

ما يهضم الزاد سوى قهوة	فقربوهـا نحونا واقربوا
ولا تخافوا الإثم في شربها	فالله قد قال كلوا واشربوا

ولهمام العناياتي :

قهوة لا صداع فيها نعم فيـ	ـها مزيل من الصداع يريح
صب في الصين مسكها فحكاها	نفَسٌ في بيـاض ثغر يلوح
ليل وصل في صبح لقيا حبيب	طاب منها غبوقها والصبوح

(وقال عبد الباقي المعروف بابن السمان في مطلع قصيدته)

بفض بكر وبشرب العجوز	يدفع بعض الناس برد العجوز

ونحن قوم مالنا ثروة ولا نرى في الشرع ما لا يجوز
قهوتنا قهوة بنٍّ زكت تعيد أيام الصبا للعجوز
وعندنا كانون جمر لقد أعاد في كانون قيظا تموز

وقال أحمد المدني المعروف باليتيّم (بالتصغير)

لله محكم قهوة تجلى لنا في أبيض الصينيّ طاب شرابها
فكأنما هي مقلة مكحولة ودخانها من فوقها أهدابها

(وقال بعضهم)

يا قهوة تذهب همّ الفتى أتت لحاوي العلم نعم المراد
شراب أهل الله فيها الشفا لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشراً فتأتي لنا في نكهة المسك ولون المداد
فيها لنا تبر وفي حانها صحبة أبناء الكرام الجياد
كاللبن الخالص في حله ما خرجت عنه سوى بالسواد

(وقال آخر)

عليك بشرب البن في كل ساعة
ففي شربها يا صاح خمس فوائد

نشاط واهبـــاط واذهاب بلغم

ونور لأبصـــار وعون لعــابد

(ولبعضهم في فنجان قهوة مذهب)

عرضت علينـــا قهوة من حسنها

سلبت من الفنجــان لون صفاره

(وقال بعضهم)

إشرب على زهر البنفسج قهـــوة

تهدي السرور لكــل قلب مكمد

فكأنهـــا خال بخــد مهفهف

او أعـــين زرق كحلن بأثمـد

وقال آخر :

أتانا قهـــوة من لب بن تعين على العبادة للعباد

وعهدي بالظبا تأتي بمسك وهذا الظبي يأتي بالزبادي

ولبعضهم :

اغنم أخي قهوتنـــا وطعمهـــا ولونهـــا

ولا تمـــل لعاذل في شربها ولو نهى

ولبعضهم :

خليليّ قوما نجتلي من زمانننا
سلافة بنّ عسجديّ منظّمِ
إذا ذاقها المحزون أبدل حزنه
سروراً وأبدى بالحديث المكتمِ

ولبعضهم :

أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا
ولا تجلسوا في مجلس هي فيه
فليست بمكروه ولا محرمٍ
ولكن غدت مشروب كل سفيه

ولبعضهم :

شراب البن يهضم كل أكل ويشفي الجوف من داءٍ مضر
وينقي الفم من طعم كريه ويقطع دمعة في العين تجري
وصار الضيف لم يكرم بغير ولو كان الطعام عسيل بر

وقال بعضهم :

عرج على القهوة في حانها فاللطف قد َحفّ بندمانها
فانها لا همَّ يبقى إذا قابلك الساقي بفنجانها

لا يوجد الغم بحاناتها قد خضع الغم لسلطانها
بمائها نغسل أكدارنا ونحرق الهم بنيرانها
يقول من أبصر كانونها أف على الخمر وأدنانها
فاشرب ولا تسمع كلام الذي يجهله يفتي ببطلانها

(وقال أبو بكر العصفوري في قهوة جامها أصفر)

سوداء مثل المسك لا كالنقس وجامها الاصفر مثل الورس
جالبة للأنس بعد الأنس حلت حلول زحل في الشمس

وقال ابو الفتح المالكي مضمنا :

قالت لنا قهوة العنقود حين رأت
لقهوة البن قدراً في الأنام على
لابدع إن حطني دهري لرفعتها
« لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل »

وقال محمد بن الرومي مضمناً أيضاً :

قد قالت القهوة الحمراء وافتخرت
كم قد ملكت ملوك الأعصر الاول
وقهوة البن إن قدراً عليّ علت
« لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل »

وقال بعض فضلاء دمشق في قهوة مثلجة :

غنيت بالثلج عن سوداء حالكة
من قهوة لم تكن في الأعصر الاول
وقلت لما غدا خلى يعنفني
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وقال محمد بن الرومي المذكور :

سمعت لسان الحال من قهوة الطلا
يقول هلموا واسمعوا نص أخباري
فباسمي تسمت قهوة البن في الملا
ولكنها لم تحك أصداغ خمار
فمن كذبها قد سود الله وجهها
وعذبها بعد الإهانة بالنار

وقال حسين الجزائري الحلبي :

أسقني قهوة بن   وامزج القهوة عوداً
هي للصفراء والبلغم   تمحو وهي سودا

وقال بعضهم :

قهوة البن تدَّعي   بابنة الكرم شبهها
كذبت في مقالها   سود الله وجهها

وقال صدر الدين :

فنجان قهوة ذا المليح وعينه الـ
كحلاء حــارت فيهما الالبـاب

فسوادهــا كسوادها وبياضها
كبياضهــا ودخانها الاهداب

وقال برهان الدين المبلط المتوفي سنة ٩٤٨ :

يا عائباً لسواد قهوتنا التي فيها شفاء النفس من أمراضها
أو ما يراها وهي في فنجانها تحكي سواد العين وسط بياضها

وقال اسماعيل بن حسن النهمي الصنعاني المتوفي في اواخر القرن الثاني عشر للهجرة في القهوة وقد طفى عليها المصطكى .

ومدامة في قهوة القشر التي أزرت بخمرة بابل ورحيقه
فكأنها والمصطكى من فوقها كالنار في القرطاس بعد حريقه

وقال ايضاً برهان الدين ابراهيم المبلط المتقدّم ذكره :

أرى قهوة البن في عصرنا على شربها الناس قد اجمعوا
فصارت لشرابهــا عادة وليست تضر ولا تنفع

وقال بعضهم :

أرسل الينــا قهوه نطفىء بها حر الكسل
فإنها أحـلى من المن ومـن طعم العسـل

وقال البديعي مضمناً :

جمعنا قهوتي بن وكرم   لنعلم من له ثبت الفخار
فقالت قهوة البن اشربوني   متى شئتم في نسي العقار
فأنشد ضاحكاً كأس الحميا   «كلام الليل يمحوه النهار»

وقال بعضهم :

سقتني قهوة في جنح ليل   وفي يدها خضاب كالمداد
فقهوتنا وكفاها وليلي   سواد في سواد في سواد

وقال عبد الواحد بن عاشر الفاسي المالكي :

يقولون لي قهوة البن هل   تحل وتؤمن آفاتها
فقلت نعم هي مأمونة   وما الصعب الا مضافاتها

وقيل عماد الدين محمد بن محمد البقاعي :

هذه قهوة الحلال أتتكم   تتهادى والطيب يعبق منها
سودوها على الحرام بحل   وأماطوا غوائل الغول عنها

ولبعض الادباء وقد حمل فنجاناً من القهوة لاحد أصدقائه وقد سهرا جزءاً من الليل :

رأيتك ساهراً والليل يجري   على عجل كمَن ركبَ الجوادا
ومَن يعصِر قريحتَه بليلٍ   يَحِنّ لقهوةٍ «سُكَّرْ زِيادَهْ»

وقال الشيخ عبد المعطي بن حسين باكثير :

قهوة البنّ جلّ مقصودي في الخفــا والعلن
هام فيها إمامنا السوري قطب أهل اليمنْ
طبخهــا بالند والعود وبغــالي الثمــن

وقال جامع هذه الرسالة عفا الله عنه آمين :

قهــوة بنيــة سمراء لا من علة
فنجانها يحكي لنا عين مهــا الرصافة
تبدعوا في صنعها تفننوا في البدعة
عربيــة نجديــة أنعم بها من قهوة
مصريــة تأتي على صينية في هيئـــة
يمنية لا ينبذوا من قشرهــا بحبة
بادر وذقهــا مرة تعرف لها من حكمة
وانشق شذاها مرة تحــكم بطيب المنبت

وللسيد مصطفى الصمدي اليمني المولود سنة ١٠٠٤ هـ قد كتب للسيد صلاح الدين بن أحمد الشرفي مغزاً في القهوة :

وجــارية سوداء إن هي أسفرت
يقبلهــا أهــل المروءة والنهى
إذا ما اشتهى ظلم الحبيبة عــاشق
فمجموعهـــا ظلم لعمري مشتهى

إذا بردت احشاؤها طال مكثها
وإن اصبحت محمومة طاب صبها
وإن ذكر الأحباب طيب أصولهم
ليفتخروا فالرشق بالقلب اصلهـــا
وإن سقيت من خالص الماء شربة
تسارع فيها الشيب وابيض جسمها

فأجابه السيد صلاح الدين المذكور بقوله :

اذا شئت حـــل اللغز منه فإنهـــا
لأول ما يقري الضيوفَ أولى النهى
إذا ضيمها في الرشق فالقلب قد هوى
وفي القشر بنيان لداء ذوالهـــا
اذا ادخلوه النـــار صار محببـــا
وان أودعوه الظل صـــار مكرها

وقال العلامة محمد بن اسحاق في قهوة طفى عليها المصطكى:

ناولني الرّيم الأغـــنّ قهوة ردت لي النشاط بعد ما ذهبْ
فكأنها والمصطكى من فوقها فصّ عقيق فيه نقش من ذهبْ

وقال زين العابدين بن محمد البكري المتوفي سنة ١٠١٣ هـ :

اسقنا قهوة غدافيـــة اللو ن حلالا تفرج الهم عنا
وأدرها من خالص البن صرفا لا تشب حسنها بغير فتنا
واتبع قول اشرف الرسل حقا قال قولا من غشنا ليس منا

وقال الشيخ البكري :

أسقني في الصبـــاح قهوة بن أوهجت نارها لهيباً ووقدا
وأدرها واشرب معي في أمان وتجاوز حداً ولا تخش حـــدا
مثـــل نار الخليل تظهر ناراً وعليه كانت سلامـــاً وبردا
سخنة اللمس طعمهـــا فيه برد عجباً كيف مازج الضد ضداً
كذب القائلون لا نفع فيها فهي عون على فروض تؤدى
وهي تنفي تـكاسلاً وفتورا ومناماً لمن يحاول سهـــدا
نفعهـــا قاصر على شاربيهـــا فالذي لام شاربيهـــا تعدى
أيهـــا اللائم المشدد فيهـــا لا تلمني فقـــد بلغت الأشدا
إن توافق فمرحباً أو تخالف فاتخذ بيننـــا وبينك سدا

وقال الاستاذ ابو المواهب البكري :

يا يوم بولاق وأنسى بـــه حكاك من شوال يوم الهلال
وأقبل النيل جنوباً ومـــا من عـــارض الا نسيم الشمال

يا عارضاً أوجب للنيل ما سلسله وهو طليق المحال

وقهـــوة تنفح مسكاً ولا بدع ففي الفنجان شكل الغزال

حبابهـــا من فوقها مانع نضاره مثـل شباك اللآل

تديرهـــا هيفـاء ممشوقة خود تثنت في برود الدلال

كاد حجا من أقبلت نحوه يذهب من رنات تلك الحجال

بغرة او طـــرة وزعت أفكارنا بين الهدى والضلال

تقول للشمس وقـد أقبلت تلثمي مـا أنت الاخيـال

وللشيخ عبد الصمد باكثير قصيدة طويلة نختصر منها مايأتي:

ألا يا طالب الراحات هذا اوان البسط فاغنم ما يسرك

إذا الإخوان قد جلسوا وطابوا فجل في وسطهم يزداد برك

وقهوتهم تدار ونشرها قـد علا بالنور أعلا الله قدرك

إذا شئت المسره والعـوافي ويشرح بالرضا والانس صدرك

عليك بقهوة البن التزمهـا فما أهنا وما أشفـا وأبرك

إذا حمستـــه ونشقت ريا شذا تحميسه فابشر بخيرك

وقال السيد محمد الحريري مفتي حماه :

هاتهـــا قوة خـلاصة بن مرة الذوق تدفع النوم عني

إنما الموت في الحقيقة موت هل يحب الموت امرؤ متهني

وأسقينها بالهال يعبق فيهـا طيبها فوق طيبه وادن مني

بفناحين صنعة الصين فيهـا من بديـع النقوش أعجب فن

فهي عند الكرام أولّ شيء يحتسيه الانسان حـين يثني

أين منها الشاي الذي ذكروه فمن الشاي يا أخا الذوق دعني

انما الشاي في الحقيقة نبت جـلده يابسٌ كشيخ مُسِنّ

وهو لم يخلط بسكر مصر مرّ ذوق يأباه بالشرب جني

أنت فضلت أعجمياً على يعـ ـرُبيّ وهذا من موجبات التدني

وقال المحدث الاديب غرس الدين الخليلي ثم المدني الانصاري في قهوة القشر [١] وهو غلاف حَبّ البن :

دع الصهباء واشرب صفو قشر مشعشعة تدور بكف بدر

وإن شئت الصفا بادر سريعاً الى حـــان لها صفو كبدر

فما اليــاقوت في لون نضير ومــا لون النضار ولون تبر

دع الراووق ان رمت التداوي وخذها فهي للأسقام تبري

كأن حبابهــا المنظوم عقــد من الياقوت يجلي فوق نحر

---

(١) أي قشر البن فان اهل اليمن يستعملون قشر البن أكثر من حبه وبعضهم يخلط معه القرفة والزنجبيل وبعضهم يشربه بالسكر وبعضهـــم يشربه سادة من غير خلط وخلط القشر الجيد الجديد لذيذ جداً .

سأسعى نحو مروتها أليّ ويصفو بالصفا صدري ونحري
ندمت ندامة الكسعي عليها لما قد فات من أيام عمري
سأدمن شربها ما دمت حيا ولا أصغي الى زيد وعمرو
وأجلو عين أغياري وهمي بصافيها سحيراً قبل فجري
فرأيي الآن يا من رام نصحي إذا شاهدتها في الحان فاجر
ولم لا وهي مشروب العوالي من السادات في بر وبحر
هي الراح المريح لكل روح ولم تمزج ولم تخمر بعصر
وكل مخالف فيها فاني أسفه قوله من أهل عصري
فقل إن قال ساقيها المفدي جبا[1] يامرحباًواسكربسكري
وخذها من يديه في حضور مع الساقي المليح بغير سكر
فلا غول ولا تأثيم فيها وليست مرة بل طعم تمر
وان غال المحب وقال شهدي أجيب نعم إذا ما كنت تمري
ولولا مدحتي للبن قبلا لعدت له بهجو ثم هجر
لِيُبسِ طباعه وسواد قلب له فهوى الحري بكل هجر

* * *

(١) جبا كلمة تقال في الهبة تقال من غير عوض عامية تاج العروس وهي كلمة ترحيب مستعملة عند العامة في الحجاز .

وقال العلامة محمد بن عبد القادر اليمني :

يا شاعراً فاق من أقـواله الشعرا
أبدى لنا من قوافي نظمـه دررا

أطربتني اذ وضعت القـاف تتبعه
هاءاً وواواً وهاءاً بعـــده زبرا

فانها قوة اذ مـــا حذفت لهـــا
هاء تبين ذا من في الانام قـــرا

لذاك ناسبهـا في ذكرك اسم قوي
موافقاً عـــدها فـــاعدده واعتبرا

بقافها قويـــة أعضـــاء كل فتى
وهاؤها الهدى ثم الواو منه جرى

بين الانام الوفـــا والهاء آخرهـا
منه الهبات وهذا السر قـد ظهرا

فاشرب هنيئاً فما في ذاك منقصة
كلا ولا حركة تخشى بهـــا ضررا

وقال الشيخ عمر بن عبدالله بن مخرمة في مدح القهوة :

لقهوة الـــبن يا نـــديم فبكرا
وكن بها يا فتى صباً بغير مـــرا

وحين يدعوك داعيهـــا فقم عجلا

ملبيـــاً تابعـــاً في ذلك الأثرا

وخذ شروطـاً وآداباً لهـا وضعت

سمعـاً الى قول منطيق بها اختبرا

فأول الامـــر بسمل ثم صل عـلى

محمد خـير سادات الورى الكبرا

وبعد ذاك خذ القشر العزيز وكل

منه بمقدار مـا للطبخ واعتـبرا

ونقه الآن والقطـــه على مهـــل

فربما حولـــه الفأر اللعين خـــرا

وقدر المـــاء واجز الكل تجزية

ولا تدعهم يقــولون زاد او قصرا

فالقشر سدس ومـاء خمسه واذا

شئت الزيادة زد سهماً وكن حذرا

وشب نارك اوقـدها بـلا لهـب

لينقص المـــاء انت الان مقتدرا

وحين يرسب ذاك القشر وانتشرت

من حبـــة البن ريا عرفها العطرا

فصفها واحذر التسكين فهــو لهــا

مفتر وقليـــل النفع مـــا فترا

حتى اذا بقيت في الدن صافية

فعنــد ذا ينبغي امعانك النظــرا

في طبع شاربهـــا فاليابس الق له

فيها من القند كي لا يضعف البصرا

وضده الرطب فاستعمــل له عسلا

وهل لذي الطب هذا يدفع الضررا

حتى اذا صلحت للشرب فادع لها

خفيف دم لبيب ان أشرت درى

ورح بها واغد في الصيني على فرش

نظيف جسم وثوب تبلــغ الوطرا

في موضع ليس فيه مـــا يكدره

فانمـــا جعلوهـــا تذهب الكدرا

وقدم الطيب واشمم منـــه مبتدئاً

ولا تدعه وراها قـــلً او كثرا

ولا تكن غــافلاً عن منشد طربا

فهـــذه ساعة الاشعــار والشعرا

وان تكن من رجال الدين زده على

هذا شروطاً فخذ عني بهـــا خبرا

طهارة مثل تطهير الصـــلاة وكن

مستقبلاً قبـــلة الإسلام مستترا

نقي قلب بـــذكر الله مشتغـــلا

في السر والجهر يا فوز الذي ذكرا

كذا على شربهـــا قل يا قوي على

أعدادها وبهذه أوص مـــن حضرا

تقول ذلك عشراً بعدهـــا مائة

وستة فالتزمهـــا تصحب الظفرا

فتنظر الكون ممـــا قلت منبسطاً

فيها وتلمح ذاك السر كيف سرى

فما هنا خبطوا فيهـــا وما علموا

بما جرى في قديم الامر يوم جرى

فهـــذه نبذة جاءت على عجل

جمعت فيهـــا لك الآداب مختصرا

وفت ثلاثين بيتاً قلت آخرهـــا

الحمـــد لله مغني فـــاقة الفقرا

ولبعضهم :

مـــا بال قهوتكم زادت برودتها
كأنها من جبال الروس قد جلبـا
فهل ذكرت حبيباً والهوى عجب
نسيت من أجله الفنجـان والرطبا
أم غـــاب فكرك في أمر تراقبه
لذا سهرت فـلا تدري متى سكبا
أم أنت ممن يحب الشاي مفتخراً
وقهوة البن لا تدرى لهـــا نسبا
أم قهوة البن هـذي غـــير متقنة
رديئة الطعم لا تبغي لهـــا طلبا

* * *

وقال السيد علي بن علي القارة الكوكباني عام ١١٧٢ هـ في قشر البن .

أدرهـــا من الفنجان للصبّ قرقفا
فقد كسيت من خالص التبر مطرفا

محللـة لا اثم فيهـــا الشـــارب

يباهي بها (عصّمان) في الذوق (اخرفا)

تلوح على الاغصان وهي زمرد

وترجع ياقوتاً بهيّــاً لتقطفــا

وتبسم عن در يسمى لدى الورى

بصاف لما يعلو على اللون من صفا

تشرد جيش الهـــم كل مشرد

وتمنح ذا الاسقــام والوجع الشفــا



القسم الثالث

ماجاء في الدخان

الدخان في عصرنا يطلق على جميع انواع التبغ
وهو نبت له ورق عريض وشهرته بين الانام تغني
عن تعريفه ويسمى ايضاً بالتتن بتاءين مضمومتين

التدخين في البلدان العربية

جاء في (مجلة العربي) بتاريخ ٢٠ ذي القعدة سنة (١٣٨٦) هجرية بعنوان (التبغ عند ظهوره لاول مرة في البلاد العربية) بقلم ابراهيم محمد الفحام من القاهرة ما نصه :

عرف الاوربيون التبغ – اول مرة – في سنة ١٤٩٢ عندما شهده البحارة الاسبانيون في جزيرة Tabago احدى جزر الانتيل الاميركية. ومن اسم هذه الجزيرة اشتقت كلمة Tabaco الاسبانية ، و Tabacco الانجليزية ، و Tabac الفرنسية ، و (وتنباك) الفارسية ، و (تبغ) ، (وطباق) باللغة العربية.

وفي سنة ١٥١٨ – على الارجح – نقلت اوراق التبغ الى اوروبا ، ثم زرعت شجيراته في البرتغال بعد ذلك بأربعين عاماً. أما تركيا فقد قيل ان التبغ لم يظهر فيها الا في سنة ١٦٠٥ ، بينما يؤكد البعض انه ظهر فيها بعد ظهوره في اوروبا بسنوات قلائل .

بدء ظهور التبغ في البلاد العربية

لا يمكن معرفة تاريخ ظهور التبغ في البلاد العربية ، على وجه التأكيد ، فقد اختلف الباحثون اختلافاً بيناً في تحديد ذلك التاريخ . ومع ذلك فان اختلافهم هذا ينحصر بين سنتي ٩٩٩ و ١٠٢٠ الهجريتين ، أي بين سنتي ١٥٩٠ و ١٦١١ بالتاريخ الميلادي .

وقد استشهد بعض الباحثين بشاعر مجهول ، قالوا انه أرخ ظهور التبغ في بلاد الشام بقوله :

سألوني عن الدخان وقالوا هل له في كتابنا ايماء

قلت ما فرط الكتب بشيء ثم أرخت يوم تأتي السماء [1]

فاذا صح ما قيل على لسان ذلك الشاعر ، يكون ظهور التبغ فيها في سنة ٩٩٩ الهجرية وهو حساب حروف « يوم تأتي السماء » بالجمل – المقابلة لسنتي ١٥٩٠ و ١٥٩١ الميلاديتين . اي بعد قرن كامل من اكتشاف الاوربيين له .

---

(١) اي (يوم تأتي السماء بدخان) .

وجاء في شرح النجم الغزي الشافعي لمنظومة ابيه البدر في (الكبائر والصغائر) ان التبغ ظهر في (دمشق سنة ١٠١٥ الهجرية المقابلة لسنتي ١٦٠٦ و ١٦٠٧ الميلاديتين) اي في العام التالي لظهوره في تركيا على وجه التقريب .

واذا رجحنا الاعتقاد بأن التبغ ظهر في بلاد الشرق العربي عن طريق تركيا ، او عن طريق الموانىء الاوروبية على البحر الابيض ، فيبدو ان ظهوره ، في بلاد الغرب العربي كان عن طريق آخر . فقد ذكر احمد بن خالد الناصري في كتابه (الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى) ان التبغ – وقد سماه التابغ – ظهر في مراكش ، منقولاً عن بلاد السودان التي تعرف الآن بجمهورية مالي في سنة ١٠٠١ الهجرية ، المقابلة لسنتي ١٥٩٢ و ١٥٩٣ الميلاديتين ، ثم ظهر في فاس سنة ١٠٠٧ الهجرية اي بعد ذلك بستة اعوام . ولم يلبث ان انتشر في سائر بلاد المغرب. ويفهم من ذلك ان التبغ قد انتقل الى بلاد المغرب عن طريق الجنوب .

وقد ذكر اللقاني في رسالته المشهورة ، رداً على سؤال عن التبغ ، ان شجرته ظهرت في مدينة تنبكو التي تتبع الآن جمهورية مالي سنة ١٠٠٥ الهجرية ، كما ذكر ان بعض الناس يسمونه (التابغة) و (الطابقة) و (الطبق) .

اما مصر فقد ذكر الاسحاقي في تاريخه أن التبغ ظهر فيها في اواخر سنة ١٦١١ الميلادية .

والواقع اننا لا نستطيع ان نطمئن تمام الاطمئنان الى احد التواريخ التي حدد العلماء والمؤرخون ظهور التبغ فيها في بعض البلاد العربية . والاقرب الىالحقيقة انها تواريخ تنبه الحكام له ، بعد انتشاره ، واصدارهم الاحكام والفتاوى بمنع تدخينه .

فتاوى بتحريم التبغ

ولقد أثار ظهور التبغ في البلاد العربية ، وانتشار تدخينه، مناقشات حادة حول اباحته وتحريمه . وقد علق الناصري في في كتابه (الاستقصا) على ظهور التبغ في بلاد المغرب بقوله « ومن تأمل أدنى تأمل في قواعد الشريعة وآدابها ، علم يقينا ان تناول هذه العشبة حرام ، لأنها من الخبائث التي حرمها الله تعالى على هذه الامة المطهرة ». كما علق اللقائي على ظهور شجرة التبغ بأن « الله ابتلى بها المسلمين » .

وذكر الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه (الصلح بين الاخوان ، في اباحة الدخان) ان بعض العلماء الاتراك أفتوا بنجاسة التبغ ، وبفساد صلاة شاربه ، وان رائحته في الثوب والبدن لا يعفى منها وان شق زوالها ، بعكس رائحة الخمر ،

اذا شق زوالها ، وذلك لتعمد شربه من غير ضرورة . وقد ترتب على تلك الفتوى اضطهاد المدخنين ، وقتل كثير منهم .

وذكر بعض العلماء ان مدخن التبغ يحشر يوم القيامة مثلما يحشر شارب الخمر ، اسود الوجه ، والغليون في عنقه ، وهو يلتهب ناراً ، وأيدوا ذلك باحاديث موضوعة مصنوعة ، لا اول لها ولا آخر .

فتاوى أخرى باباحته

وأفتى كثير من العلماء باباحة التدخين ، والفوا كثيراً من الكتب في الدعوة لرأيهم . ومن ذلك ما ألفه الشيخ نور الدين الزيادي ، والشيخ وفا العروضي ، والشيخ عبد السلام النابلسي ، الذي قيل انه ألف رسالة هاجم فيها احد قضاة الشام – وكان قد انكر عليه التدخين – سماها (السيف الماضي في رقبة فلان القاضي) .

ومن العلماء من لم يستنكر تدخين التبغ على النساء. ومن هؤلاء ابن قاسم العبادي من العلماء الشافعية ، فقد ذكر في حاشيته على شرح المنهج (ويجب على الزوج شراء نحو القهوة لزوجته ان اعتادت ذلك) ، وقال الشيخ علي الشبراملسي « انه ليس نحو القهوة الا الدخان » .

وقال الشيخ الحلبي صاحب السيرة النبوية في حاشبته على شرح المنهج « ويجب على الزوج شراء الدخان لزوجته ان اعتادت ذلك » بل لقد نسب الى بعض العلماء كان يشتريه لزوجته وبناته.

لا يزال تدخين التبغ محرماً في بعض المذاهب

ولا يزال تدخين التبغ محرماً في بعض المذاهب الى اليوم . ففي جزيرة العرب يحرمه الوهابيون . كما يحرمه الاباضية في جزيرة العرب ، وفي ليبيا وتونس والجزائر ، والتَّجانية في شمال وغرب افريقيا ، والنصيرية في لبنان .

وهو كذلك محرم على عقّال الدروز ، كما حرمه مؤسس العقيدة البهائية في ايران .

اساليب الحكام في معاقبة المدخنين

وقد اتبع الحكام – فيما مضى – اقسى وسائل القمع في محاربة التدخين . ويروى ان السلطان مراد الرابع كان يأمر بقطع شفتي مدخن التبغ ، وجدع انف من يدخنه سعوطاً . اما السلطان محمد الرابع فكان يأمر بلف حبل من اوراق التبغ حول عنق المدخن ، ووضع غليونه في انفه ، ثم شنقه وهو في هذه الحالة .

وقد ذكر الجبرتي في تاريخه ان الوالي العثماني محمد اليدقجي الذي ولي مصر في سنة ١٧٤٣ اصدر امراً بمنع التدخين في الشوارع والدكاكين ، وعند ابواب البيوت . وامر رجال الشرطة بأن يمروا في انحاء القاهرة كل يوم ثلاث مرات ، فكانوا ينكلون بمن يضبط وهو يدخن ، حتى انهم كانوا يجبرونه على التهام حجر غليونه ، بمحتوياته المشتعلة .

وذكر السيد احمد بن زيني دحلان في كتابه (خلاصة الكلام في امراء البلد الحرام) ان الشريف مسعود بن سعيد اصدر في سنة ١١٤٦ الهجرية ، المقابلة لسنتي ١٧٣٣ و ١٧٣٤ الميلاديتين ، أمرا بمنع الناس من التظاهر بتدخين التبغ في المقاهي والاسواق، وعلل المؤرخ سبب ذلك الامر الذي اصدره الشريف بقوله « وقيل انه كان يعتقد فيه التحريم، كما قيل انه لم يمنعه الا عندما تظاهر الناس بشربه في الشوارع، وتعاطاه الاراذل والاسافل، ولا يرفعونه اذا مر عليهم شريف او عالم او فاضل».

وفي السودان كان المهدي يحرم التبغ ويعاقب من يتناوله باي طريق من الطرق ، بجلده ثمانين سوطاً وسجنه مدة اسبوع .

تصرفات مماثلة في البلاد الاوروبية

ولم يكن الحكام ورجال الدين المسيحيون في اوروبا أقل قسوة على مدخني التبغ من امثالهم في البلاد الاسلامية والعربية.

ففي انكلترا امر الملك جاك الاول بالقبض على السير ولتر رالي Walter Raleigh الذي عنى بنشر التبغ في البلاد ، ثم شنقه ناسباً اليه تسميم الناس . وكان يبطش بكل من يتجر في التبغ او يدخنه . وكان الحكام الروس حتى اواخر القرن السابع عشر ، كانوا يعاقبون المدخن اول مرة بالجلد ، فاذا عاد جدعوا انفه ، ثم يحكمون بقتله في المره الثالثة .

وقد ظل الباباوات يحاربون استعمال التبغ زمناً طويلاً ، ويعدون من يتناوله خارجاً على الكنيسة واشهر من عنى بذلك البابوان اوريان الثامن ، وانسونت الثاني عشر .

هل كان التبغ معروفاً عند اجدادنا العرب

اثار اطلاق كلمة (الطباق) على (التبغ) اعتقاداً خاطئاً بأن هذا النبات عربي الاصل . واستندوا في ذلك الى ورود هذه الكلمة في بعض المعاجم والمؤلفات العربية القديمة .

فقد ورد في القاموس المحيط ان الطباق « شجر منابته جبال مكة ، نافع للسموم ، شرباً وضمادا ، ومن الجرب والحكة ، والحميّات العتيقة ، والمغص واليرقان ، وسدد الكبد ، شديد الاسخان » .

كما ورد ذكره ايضاً في لسان العرب ، وتاج العروس .

وذكره داود الانطاكي في تذكرته المعروفة وأضاف انه يسمى ايضاً « شجر البراغيث » ولم يعلل تلك التسمية ، وذكر له عدة فوائد طبية ، منها تحليل الاورام ، وازالة اليرقان ، واوجـاع القلب والمعدة ، وتفتيت الحصى وادرار الطمث .

والحقيقة ان اوصاف نبـات (الطباق) او (التبـغ) الذي يدخنه الناس في أيامنـا هذه ، لا ينطبق في شيء على اوصاف نبات (الطباق) الذي كان معروفاً عند اجدادنا العرب، والذي يعرف الان في سوريا ولبنان باسم (الطيون) وهو ينبت طبيعياً في جبال لبنان ، وحول المياه في السهول ، ويستعمل في تزبيب العنب ، لصد الزنابير ، وليس الامر الا مجرد تشابه لفظي .

اسطورة حول كلمة (تنباك)

وكما أثار اطلاق كلمة (الطبـاق) على (التبـغ) هذا الزعم الذي يستند الى التشابه اللفظي ، فقـد اثارت كلمة (التنباك) زعماً آخر يستند الى مثل هذا التشابه فقد قيل انه نبات فارسي الاصل ، لأن اسمه مركب مـن الكلمتين الفارسيتين (تن) اي (بدن) و (باك) التي تحمـل معنى (الطهر) او (التطهير) وعللوا هذه التسمية باسطورة تنسب اكتشافه الى رجل فارسي ، ابتلي بقروح في بدنه ، ولدت فيه الديدان ، وأعيت الاطباء ،

فهام على وجهه في البراري يبحث عن علاج له، حتى اهتدى الى شجيرة غريبة ، فاقتطف بعض اوراقها ، وراح يربطهـــا على قروحه ، فامتصت افرازاتها ، وطهرتها من ديدانهـا ، فشفى ، وشاع استعمال تلك الاوراق على أوجه اخرى ، وأطلـــق على ذلك النبات (التنباك) اي (مطهر البدن) .

تفنن العرب في تدخين التبغ

وقد امتدح كلوت بك كتابه (لمحة عامة الى مصر) تفـنن العرب في تدخين التبـغ ، وتعطيره بماء الورد ، وقطع العنــبر ، وتأنقهم في تهيأة جلساته ، ومبالغتهم في تزيين غلايينه الثمينة — او (شبقاتهم) كما كانوا يسمونهـــا ايضاً — اذ كانوا يصنعون مباسمها من الكهرمان ، مع زخرفتها بالميناء ، او ترصيعهـــا بالاحجار الكريمة ، حتى كان يتجاوز ثمن المِبْسم منها في بعض الاحيان خمسمائة فرنك . وكان طول الانبوبة يختلف بين قدمين وستة اقدام . وكانت تصنع من أعـــواد شجر الكـــرز ، او الياسمين ، ثم تكسى بالحرير ، وقد يكسى طرفاها ايضاً بطـول اربعة او خمسة ابهامات بالفضة او الذهب او الميناء ، وربمـــا رصعت ايضاً ببعض الجواهر . اما حجر الغليون فكان يحمـــل بنقوش عربية بديعة .

وقد سجل لنا عيسى اسكندر المعلوف في كتابه (دواني القطوف) صورة شيقة للاساليب التي كان يتبعها اسلافنا في تدخين التبغ ، وأوصاف الغلايين والنارجيلات المزخرفة الثمينة ، التي كان يستعملها الاعيان والحكام ، كالامير حيدر اللمعي ، الذي كان لغليونه انبوبة من عود الكرز ، مغشاة بالقصب الفضي الى قرب رأسه ، حيث تتدلى منه ذؤابة بديعة . وكان مبسمه من الكهرمان الثمين .

وكان الامير بشير الشهابي يدخن في غليون كبير يتسع لربع رطل مصري من التبغ . وكان الدخان يتصاعد من فمه متخللاً شعر شاربيه ولحيته ، كدخان الاتون .

وكان في بعض القصور خدم مخصصون لاعداد الغلايين وتقديمها يسمَّوْن (الشبقجية) وكانوا يتبعون سادتهم حاملين غلايينهم الثمينة ، اذا خرجوا للسفر او للنزهة .

اما لفافات التبغ اي (السجاير) فقد بدأ يتناولها اجدادنا في اواسط القرن الماضي . ويقال ان بداية ظهورها في بلاد الشام ترجع على وجه التحديد الى سنة ١٢٧٢ الهجرية ، المقابلة لسنتي ١٨٥٥ و ١٨٥٦ الميلاديتين .

وكان ظهور هذه اللفافات ببساطتها ، وسهولة حملها واشعالها ، نذيراً باختفاء أساليب التدخين القديمة ، التي كانت تضفي طابعها

الحـــالم المثير ، على ملامح المجتمع الشرقي في الامس القريب .

قال السيد علي المغربي الشهير بالأخضر :

لقــد عنفونا في الدخانــ وشربه
فقلت دعوا التعنيف فالأمر احوجا
ألا إن عفريت الهموم بصـــدرنا
عصانا فدخنـــا عليه ليخرجـــا

ولبعضهم :

شربت دخان التبـغ لا عــن مودة
لها بل هو الممقوت عند أولى الحجا
ولكن عفريت الهموم بصـــدرنا
عصـــانا فدخنا عليه ليخرجـــا

وقال صلاح الدين الكوراني الكردي المتوفي سنة ١٠٩٤ ه :

لعمرك لم أشرب دخانا لأجــل أن
تسربه نفس تــداعى خروجهـــا
ولكـــن زنابير الهمـــوم لسعنني
فــدخنت حتى يستبين عروجهـــا

* * *

وقال العلامة محمد بن علي الحرموش الشامي :

لعمرك لم أهو الدخان ولم أمل
إليه لألفي نشوة وتطربا
ولكنني أخفي به عن مجالسي
دخان فؤاد بالغرام تلهبا

وقال بعضهم :

إذا شياطين الهموم تكاثرت دخن عليها عاجلاً فتطير

وقد شطر هذا البيت أحدهم فقال :

وإذا شياطين الهموم تكاثرت
ودهتك من تعب الزمان أمور
وأردت أن تنسى الهموم وكربها
« دخن عليها عاجلاً فتطير »

وقال بعضهم :

فدينك جد بأذن للندامى ليأتوا بالدخان بلا توان
تريد مهذباً لا عيب فيه وهل عود يفوح بلا دخان

وقال العلامة الشهاب الخفاجي :

إذا شرب الدخان فلا تلمنا
وجد بالصفو يا روض الأماني

تريد مهــذباً من غــير ذنب
وهل عود يفــوح بلا دخان

وقد عارض البيتين المذكورين السيد محمد الشهير بالحميدي بقوله:

إذا شرب الدخان فلا تلمني   على لومي لابناء الزمان
أريد مهذباً من غــير ذنب   كريح المسك فاح بلا دخان

وقال بعضهم :

رشفت دخان التبـغ لا عن سفاهة
ولا عبث يزري بقدري ولا يزري
ولكــن أداوي نار قلبي بمثلهــا
كما يتداوى شارب الخمــر بالخمر

ولابن النباس الحلبي وهو من شعراء القرن الحادي عشر :

وأرى التولع بالدخان وشربه   عوناً لكامن لوعة الأحشاء
فأديم ذلك خوف إظهار الجوى   وأشوبــه بتنفس الصعــداء

وقال بعصهم :

لما تبدى دخــان التبغ ينفخ من
ثغر الحبيب به أهــل الهوى ولعوا

قالوا سحاب علا شمسا فقلت لهم
ما ذاك الا عبوق الورد يرتفع

وقال بعضهم فى امرأة تشرب السيجارة والقهوة :

أُنفثي في الدخان اسرارَ صدركْ
وانشري بالشراب مطوىً سرِّكْ
وَاشربي قهوة الحبيب هنيئاً
ومريئاً فانه تحتَ أمرِكْ
ثم جودي بنظرةٍ وابتسامٍ
واطرحيهِ على ترائب صدِرِكْ

وقال الشيخ عبد الجليل برادة المدني في الشيشة – وتسمى أرجيلة –

وما شربنا التنبك حباً وإنما أردنا به معنى قفوا وتأملو
أردناه فيما بيننا فلعلنا إلى ريق من نهوى به نتوصل

وقال عبد اللطيف المعروف بلطفى بن المنقار المتوفي سنة ١٠٥٧ ه :

وبكفه قصب الدخان وينفث الصعداء لكن للنديم نثار
والوجه عند الشرب كأنه حلى الجن وقد أثير غبار

وقال الشاعر نعمت قازان في السيجارة :

مهفهفة بيضاء كالثلج لونها ولكن في أحشائها النار تلذع

أقبلها في اليوم مليـون قبلة فلا أستحي منهـا ولا تتمنع

كأني بها عذراء برت بحبها فلا هي ترويني ولا أنا أشبع

تراني إذا ما نلت منها لبانتي رميت بها كفراً ولا أتورع

ولله نفس قد وقفت ببابهـا يميني تستجدي ويسراي تصفع

أقدمها على مذبح الشعر شمعة إذا لم يكن للوحي في النفس منزع

تموت على ثغر البريء شهيدة فأحرق أنفاسي بخوراً يضوع

أصعدهـا شيئاً فشيئاً كأنني أحس بروحي تستميت وتطلع

كذا الحب يانفسي فإن تطمعي به ولم تتلاشى فيه هيهات يطمع

أسيجارتي إني على العهد قائم وما حيلتي في دفع ما ليس يدفع

معزيتي والكأس بالمـــر حبحبت

ومؤنستي والكـأس صرف تشعشع

صحبتك أنسى فيك حباً أضر بي

إذا بك مثـل الحب لو ضر ينفع

وقال الاستاذ أحمد صافي النجفي في السيجارة أيضاً :

تخِذْتُهـا أمةً حتى غدوتُ بهـــا

عبداً فهـــا أنا أفنيهـــا وتفنيني

وقال الاستاذ سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام بالقاهرة في التـــدخين :

عذل التدخين قوم قد رأوا بيدي سيجارة أعشقهـــا
قال دعهـا فهي سمّ ناقــع قلت لا والله لا أعتقهـا
إن تكن سمّاً فـاني محرق شرّهــا بالنار إذ أحرقها
وعليه فاعذلوا او فاعذروا فعـلى الحـالين لا أطلقهـــا

ومن لطائف بعض المحبين قوله : عندما تبدأ السيجارة تشتعل يبدأ القلب يحترق ، وبعدد السجاير المشتعلة توجد قلوب محترقة في هذا الوجود .

وقال الاستاذ فوزي المعلوف في :

حسناء وسيجارة

وما انسى لا انسى وقوفي امامهـا
وفي نفسها شك بصــدقي وفي ودي
فقالت : ليهنئك الهــوى في لفافة
تعشقتها قبلي ومــا زلت من بعدي
نحيــلة جسم ألبستك نحـــولها
وصدتك عن وصلي واعمتك عن صدي

على بعدها مـا كنت تصبر ساعة
وتصبر أياماً طوالاً على بعـــدي
فدعني ، اني أكره الشرك في الهوى
وما نالني الا الذي هام بي وحدي
فـــلا يسع القلب اثنتين بحبـــه
وهل يستوي سيفان لو شئت في غمده
فقلت لها مهلاً ، فما كنت مذنبـا
وها أنا باق في هواك عـلى عهدي
اتعروك من هـذي اللفـــافة غيرة
وما بعدها يشفي ولا قربها يجدي
ولكنها ان غبت كانت نديمتي
على رغم ان ليست تعيد ولا تبدي
اراك خيـالاً في ضباب دخانهـــا
تغلغل من احــلامي البيض في برد
أرى فيه حيناً شكل عـين جميلة
والمس حينـاً فيه تكويرة النهـــد
وان مضني سهد وطـال بي الدجى
وكانت بقربي ما تذمرت من سهدي
وان تجـــدي شكاً بقولي فجربي
بواحدة تمسي وعندك مـــا عندي

وكأن دخان موصل قبلاتنا
على رغم بعد الخد منا عن الخد

* * *

وقال أحد ادباء جدة في الشيشة وهو الاستاذ عبد الوهاب نشار وذلك سنة ١٣٤٩ ه :

أصديق أنت أشاهده فصداك حشاي تردده
أم بركان تضطرم النا ر بأعلاه فتصعده
والماء بجوفك مسكنه يعليه الجر ويرقده
رشفات لماك تكيفني والهم غناك يبدده
برع الهندي بمخترع قد أفقرني شلت يده
لا النفس تطيع فأهجره وأراعي الجسم وأرقده
وأوفر شهري ديناراً وأنعم كيس مغمده
أبداً لا أقدر أهجر ما إن نفذ الأنس يجدده
يا بنت الهند كفا صلفاً فدخانك قلبي مصعده
أحرقت فؤاداً مكتئباً لو غيرك كانت تسعده
إبليس أبوك وهل شك والنار برأسك مقعده
ووليك بياع يهوى إني أمهرك فأنقده
زيدي عجباً أزدد كلفاً فبحسنك بت مقيده
علمني حبك معنوه أراده الله وأبعده

وقال فيها أحد أدباء مكة وهو الاستاذ محمد علي قطب وذلك سنة ١٣٧٣ هجرية في الشيشة :

فقَرقِري ما شئتِ أن تُقرقِري
وغَرغِري كالفارقِ المحتضرِ
وأزفري مِن خافقٍ مُلتهب
سحائباً كالألْيَل المعتكرِ
وأرْوِ مِن عِطر شذاكِ العبقري
نفسي لِتحيَى بشذاكِ العَطرِ
ففي الشذا روح لصبٍّ هائمٍ
وهاتف بالمأمل المزدهرِ

* * *

كم ذا ألذ مأوك المضطربِ
صبّاً غداً مِن دهره في وَجَلِ
وكم على صَوتِكِ قد لذّ له
تأميلُه في كل أمرٍ معضلِ
فراح كالطير يغنّي شادياً
مردّداً في نشوةٍ كالثّملِ

بشائر النصر عـــلى أشجـــانه

في يَومهِ أو غـــدِهِ المُسْتقبَلِ

* * *

في رأسِكِ المخمور عطرٌ عـــابقٌ

تزجيه أنفاسي عبيراً مُضرَمـــا

فؤادك الخفـّـــاق نطق شاهـــد

يُظهِر ما كان خفيّاً مُبهَمـــا

يبين عـــن حبٍ كمينٍ ساعـــرٍ

وخاطرٍ فاضَ معيناً مسْجَمـــا

فهل ترى بدعـــاً لأرباب الهوى

أن يصبح الكل محبّاً مغرمـــا

وقال عمر أفندي الأنسي البيروتي في الشيشة أيضاً :

إني كلفت بشيشة مـــا نالهـــا

كسرى ولا ماء السماء لها حوى

أعددتهـــا لي شادياً يشدو على

نغم الحجاز إذا أضر بي النوى

ومن الصبـــابة أعربت نغماتهـــا

ما أضمرته بقلبهـــا أيدى الجوى

حـــتى إذا سامرتهـــا وترنمت

كترنم الحـــادي بمنعـــرج اللوى

غنت فأطربت الجليس بصوتهـــا

وكذاك من بفؤاده لعب الهـــوى

وكتب الاستاذ عبد القادر رشيد الناصري من بغداد مقالة بعنـوان « **الدخان في الشعر** » في مجلة الرسالة التي تصدر بمصر بعدد ٩٢٥ وتاريخ ٢٦ مارس عـام ١٩٥١ م نقتطف منها ما يتناسب مع ما نحن بصدده وهو :

قال المرحوم معروف الرصافي قصيدة طويلة في وصف « السيجارة » سماها « العادات قاهرات » مطلعها :

كلُّ ابنِ آدمَ مقهورٌ بعـــاداتِ

لَهُنَّ يَنقـــادُ في كلِّ الإراداتِ

ثم يسترسل الى أن يقول :

لَوْ لمْ تكنْ هذه العاداتُ قاهرةً

لَمَا أسِيغتْ بحـــالٍ بنتُ حاناتِ

ولا رأيت « سيجَاراتٍ » يُدخّنها
قومٌ بوقتِ انفـرادٍ واجْتماعاتِ

إنَّ الدخــانَ لَشَانٍ في البَلاءِ إذا
ما عُدّتِ الخمرُ أُولى في البليّاتِ

ورُبّ بيضاءَ قيْدَ الأصبع احترقتْ
في الكفِّ وهي احتراق في الحشاشاتِ

إنْ مرَّ بين شِفاهِ القوم أسودُها
ألقَى اصفراراً على بِيض الثَّنِيَّاتِ

وليتها كان هــذا حظّ شاربهـا
بــل قد تَفتّ بكفّيه المراراتِ

عوائدٌ عمّتِ الدنيا مصـائِبُها
وإنما أنا في تلك المصيبـاتِ

إنْ كلّفتنِي السّكارَى شربَ خمرتهم
شربتُ لكن دخاناً من سِجَارَاتِ

وقلتُ يا قـوم تكفيكم مُشاركتي
إيّاكمو في الْتِـذاذٍ بالمضرّاتِ

إني لأمتَصّ جمراً لفّ في وَرَقٍ
إذ تشربون لهيباً مِـلءَ كاَسَاتِ

كلاهما حمقٌ يفترُّ عن ضررٍ
يَسُمُّ مِن دَمِنا تِلك الكُرَيات
حَسبِي من الحَمّقِ المعتادِ أهونه
إن كان لا بدّ من هذي الحماقاتِ
يا مَن يدخّن مثلي كل آونةٍ
لُمْني ألُمْكَ ولا تَرضَ اعتِذاراتي
إن العَوائد كالأغلالِ تجمعُنا
على قلوبٍ لنا مِنهنّ أشتاتِ
لو لمْ يك الدهرُ سوقاً راج باطِلها
ما راجت الخمرُ في سوق التجاراتِ
ولا استمرَّ دُخانُ التبغ منتشراً
بين الوَرى وهو مطلوب كأقواتِ
لو استطعتُ جعلتُ التبغَ مُحتكراً
فوقَ احتكارٍ له أضعافُ مرّاتِ
وزدتُ أضعافَ أضعافٍ ضريبَتهُ
حتى يَبيعُوهُ قيراطاً بِبَدْراتِ
فيستريح فقيرُ القوم منه ولا
يُبلَى به غيرُ مُثرٍ ذي سفاهاتِ

وللاستاذ محمد صالح بحر العلوم رباعية جميلة في وصف السيجارة وهي :

ذات جسم مستخلص مِنْ نضـــار
حجبت نفسَهـــا عـــن الأنظارِ
في خِمارٍ من اللّجَيْن شربنـــا
من شَذاها خمراً بـــدون خمارِ
قبّلَ « العـودُ » رأسها فأحسَّتْ
باحـــتراقٍ واستسلمتْ بانكســارِ
وأذابتْ أنفاسَهـــا بدخـــانٍ
في فمي ذوبَ جسمهـــا في النارِ

وقال الشاعر العراقي المرحوم محمد سعيد الحبوبي وهـو من شعراء القرن التاسع عشر للميلاد في وصف « النارجيلة » أي الشيشة :

ونار جيليّةٍ تهْذِي بكفّ رشـا
حُلوِ الدّلالِ رِشيق القـدّ ميّاسِ
ظلّتْ تعربدُ في كفّيه شـــاربة
من ريقه العَذب لا مِنْ نَهْلةِ الكاسِ

حتى إذا جادَ لي فيها بثثْتُ بها
وَجدِي عَياناً تراهُ أعين الناسِ
حيثُ الدخانُ إذا ما جال في كبدي
مَوَّهتُ في نفخِهِ تصعيد أنفاسِ
جاءتْ تزرُّ فويَق الماء مئزرها
وفوق مفْرقها لألاءُ مِقباسِ
أعدَيتها داء برحائي معاكسةً
فالدفع في قلبها والنار في الراسِ

ومن ألطف ما قيل في الشيشة ما نقلناه عام ١٣٥٩ ﻫ عن الاستاذ سليم أبي الاقبال اليعقوبي المعروف بحسان فلسطين وهو سمعه عن فضيلة الاستاذ العلامة الكبير الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية رحمهما الله تعالى وهو :

ولابسة من الياقوت تاجاً تقهقه لي إذا قبلت فاها
إذا ما رمت كتم السر يوماً أرى فاهاً بسر الوجد فاها

وقال بعضهم في الشيشة ايضاً :

ظهرت محاسنها على يافوخها فتكللت بالدر والمرجان[١]
لعب الهوى بفؤادها فتضرمت أحشاؤها فتنفست بدخان

(١) يتفنن بعضهم بصنع الشيشة ويرصع رأسها التي توضع فيها التنباك بأنواع الحجارة الملونة فيكون لها منظراً حسناً بديعاً .

ولبعضهم في الشيشة :

جليستي شيشتي والقد منها طويل كالقنا أو نحر بدر
أشبهها إذا كانت أمـــامي منـــاراً أو فناراً وسط بحر
حباهـــا الصانع الفنان نقشاً بديعاً فاتناً من غير سحـــر
إذا داعبتها ورشفت منهـــا تقرقر بطنها من غـــير ذعر
وإن في رأسها أشعلت ناراً ترى من جوفها الدخان يسري
وإن مص المحب بغير عنف لمـــاها قـــابلته بكل بر

ولبعض الظرفاء باللغة العامية :

تعميرةُ الصبحِ مصباحُ البـــدنْ
تشوفْ بهـــا مصرْ منْ ورَا عَدَنْ
إشربْ هنيئـــاً تمبـــاكْ مُعطّـرْ
تجمعْ لكَ أفكارْ ما تدرِي الحَزَنْ
تُنْبـــاكْ وحُمّى تِطيفْ مَنقّى
ورَدْ حديثـــاً مِنْ أرْضِ اليمَنْ
إشربْ وَكيِّفْ وَانفُخْ دُخَانكْ
وَاشربْ مِنَ الشايْ ممزوجِ اللّـــبَنْ

شِيشَهْ ظَرِيفَهْ زَيّ العَروسَهْ

خُذْ نَفَسْ منها يا صَاحِب الفَنْ

إن كنتَ تعبانْ تصبِحْ مُلحْلحْ

أو كنتَ طفْشَانْ تبقى مُسلْطَنْ

أَلليلُ يا لَيلْ يَا لَيلُ يا لَيلْ

أنا المُحشّشْ رَاسي مُشَنْشَنْ

وقال علي بن محمد المعروف برضائي المتوفي ١٠٣٩ في الغليون :

غليوننا حين همت كل نائبة به وساورنا هم وأفكار

قد اهتدينا الى شرب الدخان به كأنه علم في رأسه نار

وقال بعضهم :

غليوننا لقد غلا ما فيه والماء يفور

في مهجتي ومقلتي دخانه أضحى يدور

وقال بعضهم :

قدْ مَنّ خالقنا في ذا الزمانِ على

كل العباد بسرٍّ فيه مكنونِ

فأبدل الكاسَ والخمرَ الحرام بما
أباح من ُتتنٍ شافٍ وغليونِ

وقال الشيخ محمد بن علي الحرفوش الشامي :

يقولون في الغليون فرطت رغبة
وليس بشيء تقتنيه وتختارُ
فقلت لهم ما ذاك الا لكونه
ُمضَاهِيّ لا تنفك عن قلبه النارُ

وقال الحسن الصفدي القليوبي الشاعر المتوفي سنة ١٠٨٥ ه :

حكى دخان سما مِنْ فوق وجنةِ مَنْ
قد مَصّ غليونه إذ هزّهُ الطربُ
غيمٌ على بدرِ تمٍ قد تقطّع مِنْ
أيدي النسيم فولّى وهو ينسحبُ
فقلت والنار في قلبي لها لهبٌ
لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنبُ

وقال بعضهم مواليا في الجوزة :

عندي ُجوزَهْ مِنَ الهندْ ُمركّبْ عليها َغابْ
أخذتُ منها َنفَسْ العقلُ مني غابْ
زعقتُ بعزّ ما بي وقلتُ يا توّابْ
تتوبْ علينا مِنَ الجوزهْ وشربِ الغابْ

ولبعضهم يخاطب ضابط مكتب المخدرات واسمه عبد الحليم:

« عبد الحليمْ » لِيهْ كدَهْ يا مفرّق الأحباب
تحرمنا من « جوزة » المحبوبْ وشرب الغاب

ولبعضهم من أهل اليمن في الشيشة — ويسمونها المداعة :

دي شيشتي أنيستي جليستي في وحدتي
تقول في كركرها بالله خذني باللتي

وقال بعد الظرفاء وقد دخل في مقهى يسأل عن صحف الصباح ليطالعها :

ولقد دخلت على المعلّم طالباً تعميرتين لأستمخّ وأنجلي
وأطالع الاهرام والصحف التي جاءت تصبّحنا بصبحٍ فلّي
فاذا بها قد باعدت وتدلّلت والثقل من طبع الحبيب الأول

(يعني ان صحف الصباح لم تأت بعد)

وقال هذه القصيدة المخمسة في اللفافة (السيجارة) الأستاذ وهيب افندي الدمشقي الشاعر البليغ حينما حج عام ١٣٦١ واجتمعنا به في مكة المشرفة :

أشعلتها فتصاعدت آهاتها ولثمتها فترددت أناتها
ومسكتها بأناملي ودخانها يسري كسكرى أغمضت اجفانها
حيران تسأل نفسها عن جرمها

قبلتها فتساقطت أعطافهـا داعبتهـا فتناثرت أطرافهـا
ناديتها فسألتها عما بهـا فتنهدت تشكوا اللهيب بقلبها
لهباً تلظت ناره في حبهـا

فتناثرت من أعيني لشكاتهـا قطرات دمع زدن في زفراتها
فبدأت أخمد نارها ولهيبهـا فبكت وقالت رحمة دعني بها
أحرقت نصف حشاشتي فأتمهـا

ألتافتي إن الحياة ولهوهـا حلم فهلا ذقت يوماً صفوها
كلا لعمري ما عرفت هناءها بل كنت دوماً تشتكين عناءها
فامضي إذن وتخلصي من ظلمها

وكتب الأستاذ محمود محمد بكر هلال في مجلة الرسالة التي تصدر بمصر بعدد ٩٢٥ وتاريخ ٢٦ مارس عام ١٩٥١ بعنوان (بين شاعر وسيجارة) ما نصّه :

أغرت السيجارة الشاعر بأنفاسها العطـرة ، فجرى في حبال هواها ، وجاذبهـا قبلة بقبله ، وبادلها حب بحب ، ولكنه عندما اضطرمت أنفاسها في صـدره ، واضطربت قبلاتها على ثغره ، سئم هواها ، وملّ أنفاسها ، فهجرهـا الى غير عودة ، ونأى عنها على غير ميعـاد ، فكان بينهما هذا الهَجر وذلك العِتاب .

قال الشاعر عن السيجارة :

جاءتْ تُراوِدُ في هوادَهْ وتشوقني في دَلّ غادَهْ
أغرَتْ فمِي قُبلاتِها فغدتْ لِزاماً كالعِبادَهْ
وتَنسَّكتْ في حُبِّها لي وارتَدَتْ ثوبَ الزهادَةْ
ما زِلتُ أهوَاهَا وأطْلُبُ مِنْ مباسِمِها الزيادَهْ
إنْ غابَ عَنيّ ثَغرُها فقَدَ النُّهى منّي رشادَهْ
حتّى صَحوتُ عَشِيةً وإذابها . ولها السَّيادَهْ
سيجارةٌ غدارةٌ قد حَرّمتْ جفني رُقادَهْ
هيفاءُ تغري كل ثغر بالصبابة والودادهْ
طلّقتُهَا وأنا المحب فبعدها عني سعادهْ !
ماذا يفيدك من دخا نك بعدما تذرو رمادهْ ! ؟
إما إضطراب في التنفس قد يجر الى الشهادهْ !
إما سُعال فاتك يدعو الى باب العيادهْ !
صَدرُ المدخّن كالظلام فلن ترى إلا سوادهْ !
خيرُ الأمور لعاقل ألاّ يكون أسير عادهْ !
من لم يضحّ فلا تصح لمثله فينا القِيادهْ !

فأجابته السيجارة :

أنسيتَ أني راحـــة   من كل نازلةٍ وسلوى ؟
أنسيتَ باعثة الخيـا   ل إذا النهى أكدى وأقوى؟
قُبلاتُ ثغرى متعـــة   وحديثها همس ونجوى !
تحنو عَليَّ إذا ظمئـــ   ـت فتحتسي مني وتُـروى
أنفاسُ غـانيةٍ من القبـ   ـلات والصبوات نشوى !
في جوّها سَبَحَ الخيا   ل بكل ما تصبو وتهوى
تتصاعدُ الأنفـاس في   دنيا مِنَ الآمال تُطوى
فكأنهـا الغَيمُ الرقيـ   ـقُ يراقص الأفكار زَهوا
فَلِمَ التباعضُ والقـلى   وأنا التي بالنار أُكوى !
أيليقُ هُجـرانُ الحبيـ   ـب وحفظه للودّ يُروى؟
أنسيتَ أنَّ الهجرَ بعـ   ـد الوصل للعشاقِ بَلوى ؟
راجعْ فؤادَك فـالحـ   ـبّ على التباعدِ ليس يَقوى

فرد عليها الشاعر :

أبداً فلستُ براجـــعٍ   عَنْ هَجرها طُول المَدى!
مَنْ ذا الذي يَهفو الي   ثغرٍ ثنـاياهُ الردى ؟
آليتُ لا أصغِي لَهَـا   أبداً وأتركهـا سُدى !
لو زَحْزَحتْ جبلَ المقطـ   ـمِ ما مَددتُ لها يَدا !

ولعبد العزيز صبري في الشيشة :

كم من ليال قضيناها مسامرة
في ساحة « السيد السقاف » بالأدب
لم أنسى شيشتها الهيفاء حاضرة
تحنو إلي بلا ختل ولا كذب
فما أشد ارتشافي من لذاذتها
كأن في ثغرها ورداً من الضرب
والشاي والقهوة الفيحاء نرشفها
والظرف واللطف والسلوى من الطرب
فيا ليالي أنسى بين من حمدت
خصالهم وذوي الآداب والحسب
عودي لنا بصفاء الدهر ثانية
وجددي مرحى في ساحة العرب

وقال جبران تويني في الشيشة نقلاً عن مجلة الاديب التي تصدر ببيروت من الجزء السابع من السنة الثانية بتاريخ سنة ١٩٤٣ :

أركيلتي [١] تعددت صفاتها واستحكمت من أضلعي لذاتها
جليستي في وحدتي أنيستي تطرب مني النفس كركراتها

---

(١) هي الشيشة وبالفارسية نارجيلة وتسمى في اليمن مداعة .

من نسل طهماز[1] رأت كسرى على إيـــوانه موزونة دقاتهـا

يسيح منها القلب في قارورة تخف في ميـاهها أناتهـــا

يمتد من صميمه نبر يشها[2] فتنجلي عن صدرها كرباتها

تتوجت بالنار فهي عـــلم تأتم إن ضلت بـه هداتهـا

أروح في الصبح بها واغتدي في نشوة تنعشني قبلاتهـــا

ألثمهـــا ثم أعض فمهـــا حتى تروي شفتي لهاتهـــا

فتلتقي أنفاُسنـــا في لذة إن ما نهلت اتقدت جمراتها

وارسل الدخـــان ترتاح بـه نفس عليها ازْدَحَمَتْ علاتها

تفرج الهموم عني نفخــــة تكثر في سكونها عِظاتهـا

والنفس تلقي في السكون راحة إذا الهموم استحكمت حلقاتها

قضت علي بالتواري مـدة سياسة تعـددت لوثاتهـــا

فكنت أقضي الوقت مع أركيلتي فلي شكاتي ولها شكاتهـــا

أبثها همي فألقي عندهـــا روحاً بروحي امتزحت ذراتها

فتتنـــاجى وكلانا صـامت فإن نفخت عذبت نغماتهـا

وإن أحدث سكتت راضية لا تقطع الحديث شقشقاتهـا

---

(١) قيل هو مخترع الشيشة .

(٢) هو اللي .

رفيقة مطواعة نديمهـــا تؤنسه في راحة جلساتهـا
يا ليت كل امرأة تأخذ ما انطوت على محمودة صفاتها
فتسمع الحديث إن دار ولا تقطعه بالسخف ثرثراتهـــا
سيدتي عفواً فاني هــــازل والنفس في الهزل لها سقطاتها
أركيلتي إذا أرت لي بهجة طابت لي الدنيا ولي بهجاتها

والشيخ عبد الجواد المدني في الجراك :

شرب الجراك أنيسي مع من أحب إذا وفا
وبـــه يتم سروري «بشوالة»[1] نعم الصفا

وقال بعضهم في شرب الدخان :

قالوا تعاطي الدخان قبح فقلت لا ما به قباحه
ففيه صرف لشغل فكر وفيه عون على الفصاحة
ولم يرد بالحــــرام نص فالأصل في شأنه الإباحة

فرد عليه المرحوم للشيخ زكي الدين سند المصري بقوله :

قالوا تعاطي الدخان حسن فقلت لا كله قبـــاحه
يسم جسماً يضر صدراً كريه ريح عديم راحــه
أبعد ذا لم يكن حراماً أبعد ذا أصله الإباحــه

---

(١) شوالة – اسم بستان بالعالية بالمدينة المنورة .

كتبنا الأبيات المتقدمة مع رد الشيخ زكي الدين عليها نقلاً عن تلميذه الفاضل المحترم الأستاذ محمد علي بك العكام مفتش مخازن السجون بالقاهرة اجتمعنا به في القطار الذاهب منها الى الاسكندرية في اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وتسع وستين هجرية الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٠ ميلادية .

وقال بعضهم في التحذير من شرب الدخان :

إتبعْ طريق الهُدى وامشِي على السُّنَنِ
وخالفِ النفسَ وازجرها عن المحَنِ
إياك من بدَعٍ تأتيكَ في عطبٍ
لا سيمّا ما َفشَى في الناس من ُتتنِ
مخدّر الجسمِ لا نفعٌ به أبداً
بل ُيورث الضرَّ والاسقام في البَدنِ
ولا َيغرَّنْك َمن في الناسِ َيشربه
فالناسُ في غفلةٍ عن أوضح السننِ
يقضي على المرء في أيام محنتِهِ
أن قد َيرى حَسَناً ما ليس بالحَسَنِ

وقال بعضهم لغزاً في الدخان وهو :

ومحبـوسٍ بـلا ذنبٍ جَنـاهُ
لهُ في الشكلِ لون من رُصـاصِ

إذا أطلقتـه يمضِي سَريعـاً
يُقبِّلُ فـاكَ مِن شَركِ الخـَلاصِ

ويقال إن لشعراء النجف الشيء الكثير في وصف الدخان

الى هنا إنتهينا مما ورد في الدخان ، ولا بأس ان نذكر بضعة أبيات فيما ورد في أكل القات وهو نبات يكثر زرعه في بلاد اليمن فيأكلون ورقه ولأهل اليمن ولع كبير بأكله ، ولم نجتمع بأدبائهم مع الأسف حتى نكتب عنهم ما قالوه في القات من لطيف الأشعار ورقيق الأبيات اللهم الا نبذة يسيرة اثبتناها هنا مع ثلاثة أبيات جاءت في النشوق وهو مسحوق الدخان يستنشق في الأنف وكل ذلك يعد من الطرائف والملح وبه تتم هذه الرسالة .

فلجلالة الإمام يحي بن محمد حميد الدين ملك اليمن السابق رحمه الله تعالى المقتول الشهيد سنة ١٣٦٧ هـ . قصيدة طويلة نقتطف منها في القات ما يأتي :

فللعيون جـلاء للضعف منه ذهاب
وللثغور صبـاغ زمردي يـذاب

أحسن بثغر مليح   له المذاب رضاب
ياما أحَيْلاه َظلماً   به تشتفي الأحباب
ويشخذ الفكر حتى   يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عمن   له الجليس كتاب الخ

وقال الشيخ ابراهيم الهندي الصنعاني :

أشبّه ثغره والقات فيه   وقد لانت لرقته القلوب
لآلىء قد نبتن على عقيق   وبينهما زمـــردة تذوب

وقال بعضهم فيه :

صفت فطابت بأكل القات أوقات
وأشرقت من سناه نـور مشـكات
زبرجد من غصون فـاق مطعمه
على الفواكه مـن أكل الحلاوات
أما ترى قلم الرحمن خط عـــلى
أوراقه فيهـــا رسم الجـــلالات
أتى به الخضر المشهور يحملـــه
من بلدة الصين من خـير الهدايات

أهداه حقاً لذي القرنين حين شكا
أصحابه وخماً في بعض أوقــات
من بعد مـا أكلوه زال سقمهموا
وأصبحوا في مسرات وصحـات
كله بمـا شئت من دنيا وآخــرة
وجلب نفع ودفــع للمهمــات
ثم الصـــلاة على المختـــار سيدنا
محمد مـــن له فينـــا شفاعات

وقال بعضهم في النشوق وهــو مـا يستعمل في الأنف من التبـغ المطحون :

مـــا اتخـــذت النشوق إلا لأني
فقت في الحب كل صب مشـــوق
فابتلاني الهــوى بفيض دمـــوعي
فتسترت باتخــاذ النشــوق

وقال بعضهم فيه :

إن النشوق وإن جلت منافعه يكفيك منه تعافيش المناخير

اختِتام الرسَالة

لما انتهينا من تنقيح هذه الرسالة وإدخال الزيادات فيها إستعداداً لطبعها للمرة الثانية ان شاء الله تعالى ، رأينا أن نختتمها ببعض أبيات من الحِكَم تكون عِبرةً للمتأمل الفاضل وَعظةً للمطّلع العاقل – ولا يُعدُّ عيباً إذا زِيد شيء من الفوائد في كتابٍ أُلِّفَ في فَنٍّ مُعيَّن .
فنقول وبالله التوفيق .

فكم لله من لُطفٍ خَفيٍّ … يَدِقُّ خَفاهُ عن فهم الذّكيّ
وكم يُسرٍ أتى مِن بعد عُسرٍ … وفرَّج كُربة القلبِ الشَّجِيِّ
وكم أمرٍ تُساءُ به صباحاً … وتأتيك المَسرّة بالعَشِيِّ
إذا ضاقتْ بك الأحوالُ يوماً … فثقْ بالواحِد الفَرد العَليِّ

* * *

لا تفزَعنَّ إذا ما الأمر ضِقْتَ بهِ
ذرعاً ونَمْ وتوسَّدْ فارغ البالِ

فبيْنَ غفوَةِ عينٍ وانْتِباهَتِهـا
يُغيِّرِ اللهُ من حالٍ الى حالِ

* * *

أترُكِ الفِكرَ في الامورِ ودَعْها
فكما قُدِّرتْ تكونُ الأمورُ
كلّ فِكرٍ وكلّ رأيٍ وحَزَمٍ
غيرُ مُجدٍ إذا جَرى المقدورُ

* * *

ولقد تمرُّ الحادثاتُ على الفَتى
وتزُولُ حتّى لا تكونَ ببالِهِ

* * *

وَلرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفَتى
ذرعاً وعند الله منها المَخرَجُ
ضاقت فلما استحكَمَتْ حلَقاتُها
فُرِجتْ وكان يَظنّها لا تُفرَجُ

* * *

يا رَبِّ ما زالَ لُطفٌ منك يَشملُني
وقد تجدَدَّ بي ما أنتَ تعلمهُ

فاصْرفهُ عني كما عَوَّدتني كَـرمـاً
فمَن سواك لهذا العبدِ يَرحمـــهُ

* * *

قد قلتُ لمّا وَهَى جسمي وَأقلَـقِني
ما حَلَّ بي من سقامٍ أنْـحلَـتْ بَدني
وما رمــاني دَهري مِـــن المحَنِ
يا ربِّ إن كان تمريضي يُقرّبُني
زُلفى إليك فبابُ العفـوِ أوسعُ لي

* * *

أو كان مِن أجل عِصياني الذي عَظما
وسوءِ مــا قلته جهراً ومُكتَتما
فالعفو عمّن عصى من شِيمة الكُـرَما
أو كان من أجْل تمحيصِ الذنوب فما
يحتاج عفوك للأسقام والعِلَـل

* * *

لأبْتَـهلَـنْ تحت الظـــلام بِدَعوةٍ
متى يَدعُهــا داعٍ الى الله يَسمَعِ

تَغلغلَ مِن بين الضّلوع نَشيجُها
له شافعٌ من عَـبرةٍ وتضرُّعِ
الى فارج الكرب المجيب لمن دعا
فزعتُ بكربي إنه خيرُ مَفزَعِ
فيا خيرَ مَدعوٍّ دعَوتك فاستمعْ
وما لي شفيعٌ غيرُ فضلك فاشفعِ

* * *

إذا رَفعَ الزمانُ مكانَ شخصٍ
وكنتَ أحقَّ مِنهُ ولو تصاعَدْ
أنِلْهُ حقَّ رُتبتهِ تَجِدْهُ
يُنيلُكَ إن تقارَبَ او تباعَدْ
ولا تقُلِ الذي تدريه فيه
تكنْ رجلاً عن الأهْوَا تقاعَدْ
فكم في العُرس أبْهى من عروسٍ
ولكن للعَروسِ الدهرُ ساعَدْ

* * *

ان الكريمَ ليُخفِي عنك عُسرتَه
حتى تظُنَّ غِناهُ وهو مجهودُ

* * *

حَملْنا مِن الايام مـــا لا نُطيقهُ
كما حَملَ العَظمُ الكسيرُ العَصائِبا

* * *

مِحَنُ الفَتى تُخـبِـرْنَ عن فضلِ الفتى
والنارُ مُخبِرةٌ بفضـــل العَنـبْرِ

* * *

فبعضُ الظالمينَ وإنْ تناهَى شهىً الظلم مغفورَ الذّنوب

* * *

ألا في سبيل المجد قومٌ عهدتُهمْ
يَروْن اكتساب الفضل أزْرَى المكاسب
وما عندهم فضلٌ سوى كثرة الغِنى
ولا المجد إلا أخذ بعض المنــاصبِ
فضــــائلهم محشوّة في ثيــــابهم
وأوْرادهم إتقانُ هـــزّ المناكبِ

* * *

تكفــي اللبيبَ إشارةٌ مكتوبةٌ
وسواه يُدعـــى بالنِّداء العــــالي
وسواهمـــا بالزجر من قِبَل العصـــا
ثم العَصـــا هي رابـع الاقســامِ

* * *

أُسْرةُ المــرء والداه وفيما بين حُضنَيْهما الحياةُ تطيبُ
فإذا ما طَواهما الموتُ عنهُ فهو في الناس أجنبيٌّ غريبُ

* * *

إن البقـــاع اذا نظرتَ رأيتَها
تشقَـى كما تشقَـى الرجال وتسعدُ

* * *

خيرُ الامورِ الوسطُ الوسيطُ وشرُّها الافراطُ والتفريطُ

* * *

فلَـرُبُما مَنعَ الكريمُ وما بهِ بخلٌ ولكن سوءُحظِّ الطالبِ

* * *

غَضبُ الكــريم وإن تأجّجَ نارهُ
كدُخان عودٍ ليسَ فيه دُخــانُ

* * *

العــلم في الرجـــل الحليم فيضلةٌ
ونقيصـــة في الاحمـــق المطياشِ
مِثل النهار يزيد أبصـــار الورى
نـــوراً ويَعشى أعـــينَ الخفّـاشِ

* * *

والنجمُ تستصغرُ الابصارُ رؤيتَهُ
والذنبُ للعينِ لا للنجمِ في الصغرِ

* * *

قيمة الانسان بالعلم كما قيمة العلم بمالٍ مُسعِدِ
فاسْعَ في تحصيل كلٍّ منهما فهما للمرء أهنى موردِ

* * *

العلم زرْعٌ والتأمّل ماؤه
والذهنُ أرضٌ والمعلّمُ زارعُ
والبحث فيه شمسُه وسماؤه
مُلقَى الأفاضلِ واختلاطٌ نافعُ
ونموُّه بافادةٍ ونماؤه
عملٌ الى أعلا المراتب رافعُ
ونَفاقُ هذا العلم في سوق الْ
قبولِ تُقىً واخلاصٌ به وتواضعُ
ثم التكبرُ والريا والعُجب آ
فاتٌ وكلٌّ للسعادة مانعُ

* * *

قومٌ مَضَوْا كانت الدنيا تزانُ بهمْ
والدهر كالعيد والاوقات أوقاتُ
ماتوا وعشنا فعاشوا بعد موتهمُ
ونحنُ في صوَرِ الاحياءِ أمواتُ

* * *

وما عبَّر الانسانُ عن فضلِ نفسهِ
بمثل اعترافِ الفضل في كلّ فاضلِ

* * *

رُبَّ حيٍّ كميتٍ ليسَ فيهِ أملٌ يُرتجى لنفعٍ وضرٍّ

* * *

مَثلُ الجاهل في إعجابه مَثلُ الناظر من أعلا الجبَلْ
ينظرُ الناسَ صِغاراً وهو في أعيُنِ الناسِ صَغيراً لم يَزلْ

* * *

دخلَ الدنيا أُناسٌ قبلنا وَجلَوْا عنها وخلّوها لنا
ودَخلناها كما قد دَخلوا ونُخلّيها لقومٍ بعدنا

* * *

ما الدهر الاّ ليلةٌ ويومُ ويقظةٌ بينهما ونَوْمُ
يموتُ قومٌ ويعيشُ قومُ والدهرُ قاضٍ ما عليه لومُ

* * *

دنيا تتقلّبْ أَشْكالْ وكلُّ شكلْ وَلُو حَالَهْ
وكلُّ عهدٍ وَلُو أَبْطالْ وكلُّ جيلْ ولُو رِجَّاله
الدنيا دي زَيّ السِّيمَا وكلُّها زيّ الصَّالهْ
فيها مَناظِرْ واستِعراضْ وبَرْضها مُشْ بَطّالَهْ

* * *

أيّـامْ تجِي وأيّامْ تروحْ وناسْ تجِي وناسْ تتوفّـهْ
وكلُّ شايِبْ قبل ما شابْ كانَ اصْله عَيِّلْ فِ اللّفّهْ
واللّي يُلَفْ مَسِير ينامْ مهما يُطولْ عهدِ اللّفّهْ
واللّي تِلاقيهْ عامِلْ مِيتَمْ بكْرهْ تِلاقِيهْ عامِلْ زَفّهْ

* * *

إللّي انْكتبْ عَ الجبينْ لازمْ تشوفُو العِينْ
وَعْدكْ ومكتُوبَكْ يا قلبي كانْ مُخَبّا فين
إن كانَ كِدَهْ قِسْمَتكْ بخْتَكْ أَجِيبُو مِنِينْ
سَلّمْ أُمورَكْ يا قلبي وامْتَثِلْ للهْ

* * *

وللخير أهلٌ يُعرَفون بهديهمْ
إذا اجتمعتْ عند الخُطوب المجامعُ
وللشرّ أهلٌ يعرَفون بشكلهمْ
تشيرُ إليهمْ بالفجورِ الأصابعُ

* * *

قُلْ لمنْ أبصرَ حالاً مُنكَرَهْ
ورآى مِنْ دهرهِ ما حَيَّره
ليسَ بالمنكر ما أبصَرْتَهُ
إن مَن عاشَ يرى ما لم يَرهْ

* * *

قلْ لمنْ شاهدَ أَمراً أقلَقَـهْ ورآى ما تستحِلُّ الفَسقَـهْ
سترَى هـذا الذي تُنكرهُ مُستحبَّاً بعد تلك الطبقَـهْ

* * *

هل يَعقِلُ المرءُ وهل يسمعُ فما الذي يشكو له المُوجَعُ
وكلّنا شاكٍ وباكٍ علـى أَشياء قد زالتْ فلا تَرجعُ
كم تحت جوفِ الليل مِن مهجةٍ تكاد لا تمسِكهـا الأضلعُ
وصاحبُ النعمة لاهٍ بهـا وحامِلُ النقمة لا يَهجَعُ
رُحماك يا خالقُ هذا الورى إرثِ لبلواهُ إذا يَضرعُ
صَعبٌ علينا بعضُ ما قدجرى أمّا اذا شئتَ فما نصنـعُ

* * *

إن سئِمتَ الحياةَ فارجعْ الى الارْ
ضِ تَنَمْ آمنـاً مِن الاوصابِ
تلك أُمّ أَحنى عليك مـن الأمّ
الـتي خلّفتْكَ للأتعـابِ
لا تخفْ فالممات ليس بمـاحٍ
منك الاّ ما تشتكي من عذابِ
كلّ ميْتٍ باقٍ وان خالف الـْ
عنوان ما نصّ في غضون الكتابِ
وحياةُ المرء اضطرابٌ فإن ما
تَ فقد عادَ سالمـاً للترابِ

* * *

كلُّ مَن لاقيتُ يشكو دهرَهُ ليتَ شِعري هذه الدنيا لِمَنْ
المُثْرْ قد بلاهُ مالُهُ يتجافى الجنبَ عن مَهدِ الوسَنْ
أَم لمضطرٍّ رماهُ فقرهُ بسهام الضنك عن قوس الإحَنْ
أَم لحُرٍّ ان يَزدْ مِن علمهِ فضلُه يزدَدْ لهُ حِقدُ الزمنْ
أَم لذي جهلٍ وقد كنَّوْا به عن بَهيمٍ فاتَه فضلُ الرسَنْ
حِكمةٌ تاهت عقول الناس في دَرْكها او قصّرت كلّ الفِطنْ
كلُّ مَن لاقيتُ يشكو دهرَهُ ليتَ شِعري أَبعثُ الشكوى لمنْ

* * *

وأَطيبُ أَوقاتي مِن الدهر خلوةٌ
يَقِرّ بها قلبي ويَصفو بها ذِهنِي
ويأخذ لي مِنْ سَوْرةِ الفِكر نشوة
فأخرُج منْ فنٍّ وأدخل في فنِّ
ويفهمُ ما قد قال عقلي تصوُّري
فنقلي عن اذني وسمعي بها مِنيّ
وأَسمعُ منْ نجوَى الدّفاتر طرفةً
أَزيلُ بها همِيّ وأَجلو بها حُزني
ينادُمني قومٌ لديَّ حديثُهمْ
فما غابَ منهمْ غيرُ شخصهمُ عنيِّ



الى هنا نُمسك عِنانَ القلم ، وأسأله سبحانهُ وتعالى الذي أَوْدعَ في كلّ قلبٍ ما أشغلَه ، ان يُخليَ قلبي من الشّواغِل الدّنيوّية ، ويَملأهُ نوراً وعلماً وحكمةً ، وان يوفّقني بعد الآن للاشتِغال بما يَنفعُني ليوم الدِّين ، يومَ لا يَنفعُ مالٌ ولا بَنونَ الاّ مَن أتى الله بقلبٍ سليم ، وان يتولاّني بعِنايتهِ الرّبّانية حتّى تنشط أَعضائي لِعبادتهِ ، وان يَرزُقني الصّحةَ والعَفوَ والعافية ، وان يختمَ حياتي بالايمَانِ الكاملِ ، وان يَمنحَنِي الراحةَ عند الموتِ والعَفوَ عند الحسَاب ، وان يَجعلنِي في الدّاريْن مِن الّذينَ لا خوفٌ عليهمْ ولا هم يَحزَنون ، فضلاً منهُ ورحمةً إنّهُ بعبادهِ لَطيفٌ خبيرٌ وانه لَغفورٌ رحيم آمين ، وصلى اللهُ وسلم على نبيّنا محمّدٍ أبي القاسم الامين وعلى آله وصحبه أجمعين .

صَرفتُ زماناً في فُنونٍ جَمعتُها
وأفرَغتُ جُهدِي والجُنون فُنونُ
فلمّا تجلَّى الامرُ وانكشفَ الغطا
تَبيَّن لي انّ الفُنونَ جُنونُ

اللهم اكشف عنا حُجب الجهل والغفلة، ونوّر بواطننا بنور معرفتك، وبيّض وجوهنا بالاستقامة التامة ، ووجّه ضمائرنا الى الحق والخير، وافتح أَعين بصائرنا حتى نشتغل بطاعتك وذكرك، وطهّر قلوبنا حتى نلقاك بقلب سليم ، بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين ويا اكرم الاكرمين آمين ، سبحان ربك ربّ العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين .

المؤلف

محمد طاهر الكردي المكي الخطاط بمكة المشرفة

المحتوى

تصميم الغلاف
الاستاذ عبد السلام الشريف



الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م
الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م
الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

جدة
الادارة : البغدادية ـ عمارة الجوهرة ـ الدور الثاني ـ شقة رقم ٧ ـ ١٢
● تليفون ٦٤٣٢٨٢١/٦٤٢٤٠٤٣/٦٤٢٤٢٥٥
المستودعات طريق مكة المكرمة شرق المطار القديم ● تليفون ٦٤٧٢٣٩١
● تلكس ٤٠٤٣٥١ نشرا ● ص.ب ٢٠٤٣
المكتبة : شارع الملك عبد العزيز ● تليفون رقم ٦٤٧٨٧٢٣
المكتبة : شارع فلسطين ـ مركز الزومان ● تليفون ٦٦٠٨٩٦٤

الدّمّام : الشارع العام ـ ص.ب ٨٩٩ ● تليفون رقم ٨٣٢٣٥١٥/٨٣٣٥٥٢٠
الرّياض : السليمانيّة ـ ص.ب ٩٤٧٢ ● تليفون : ٤٦٤٧٥١٥/٤٧٦٩٠٨٦

هذا الكتاب

احببت ان اجمع رسالة
لطيفة مما قاله الادباء
والظرفاء فيها على سبيل
الفكاهة ، ولم اتعرض
لذكر منافعها او مضارها
لان ذلك لا يخفى على
اولي الحكمة والنباهة
وكم ذكر فطاحل القراء
قديماً وحديثاً في الخمريات
من القصائد والأبيات .
جمعتها لمفاكهة الأخوان
الافاضل ، ومنادمة
الاصدقاء الاماثل ،
جلباً للبسط والانشراح
وترويحاً للنفس بلطيف
المزاح « فقد قيل » ان
القلوب تصدأ كما يصدأ
الحديد ، وتملُّ كما تملُّ
الابدان .